نـور شحط

روايـــــة

دُلـــــــوك الشَـــمس

2018

المحتويات

- إهداء
- الفصل الأول: توقيت الرحلة ليس بالأهمية بقدر اتجاهها.
- الفصل الثاني: العقل قائدٌ جسور أما القلب فسائقٌ أرعن.
- الفصل الثالث: الحوم حول هوة الخطأ يقودك إلى الوقوع فيها.
- الفصل الرابع: في غفلةٍ ما قد ننجو من الموت أو قد نموت غافلين.
- الفصل الخامس: تتغير الآراء كتبدل الفصول لكن المبادئ تبقى ثابتة كالشمس.
- فُرصة شكر
- فقرة الغلاف
- إصدارات الكاتبة الأدبية

إهداء

* إلى الذين يكذبون وهم على ثقة تامة بأن حبل الكذب طويل جداً، بحيث يكفي للف الكرة الأرضية بغير حساب.

* إلى الذين يخدعون أقرب الناس إليهم براحة ضمير، وهم على استعداد دائم لحياكة الخدعة تلو الأخرى بكل بساطة.

* إلى الذين يملكون قلوباً من حجر، ولا يأبهون لها مطلقاً حتى إن تهشّمت، وباتت حصىً يرمون بها قلوب الآخرين.

* وإلى الذين يقعون في ذات الأخطاء عدة مرات... مجترّين ألمهم بصمت لينهضوا من جديد، متكئين على ابتسامتهم.

أخيراً ...

* إلى اللغة العربية التي حاولتْ جاهدةً بحروفها تعبئة فراغ لن يمتلئ أبداً... فتَدفقت من خلاله رواية دُلوك الشمس.

(1)

توقيت الرحلة

ليس بالأهمية بقدر اتجاهها

غداً عيد زواجنا الخامس... لم أُرتب لمفاجأةٍ أو هديةٍ بَعد، فَالأوضاع لم تعد منطقية لحجز طاولة لشخصين مع عشاء فاخر في مطعم راقي، بينما القيام بنزهةٍ ليلية إلى أي مكان هي بمثابة عمل انتحاري بعد تمزق مظلّة الأمان من شدّة أزيز الرصاص وهبوب عواصف الخطف، مما ألزم الناس على الاختباء في منازلهم للاحتماء بعد حلول الظلام وإغلاق عيون الشمس...

أما بالنسبة إلى الهدايا من المصوغات الذهبية والقطع الألماسية لم تعد هناك بهجة في تقديمها من كثرة ما تملكه زوجتي منها، ففي طيلة المناسبات المنصرمة من عيد ميلادها إلى عيد الحب وعيد الفطر السعيد وعيد الأضحى المبارك... إلخ، كانت تلك الهدايا توثق حضورها بأشكال مختلفة من أساور وسلاسل أو أطقم، حتى عيد المرأة العالمي يكون له نصيب منها بقطعة حُليّ تُميزه عن الباقي...

الآن أُفكر بشيءٍ مُميز غير كل الأعياد ومختلف عن كل السنوات السابقة، تدور في رأسي فكرة أنّه قد حان الوقت لأخبرها عن السر الذي أخبئه.... كلا لن أخبرها في تلك المناسبة، ربما بعد مضي أكثر من الوقت! فلن أقوم على تعكير صفوة فرحتها في هذه الليلة.

تعرّفت على زوجتي راية بطريقة شائعة، وما لبثت أن جعلتها مميزة بنكهة الصدفة المقصودة، رأيتها أولاً في حفل زفاف عائلي لابن أحد أصدقاء والدي...

مُهرّةٌ صهباء تجلس بجانب والدتها، كانت ترتدي فستاناً أنيقاً من المخمل باللون النهدي، يوجد لون يُعرف بلون البنفسج الفاهي، نُطلق عليه اسم النهدي أي بلون النهد الذي يتدفق داخله الأوعية الدموية بصورة شديدة بعد الولادة كيّ تساعد على ضخ الحليب للرضيع...

راية تمتلك ملامح طبيعية غاية في الأنوثة، فلا يليق بها التبرج الصارخ، وهي تعلم جيداً كيف تُبرز ذاك الجمال الذي أصبح نادراً في عصر العمليات المبالغ فيها من حقن ونفخ لدرجة أن غالبية السيدات أصبحنَ نسخة مطابقة لبعضهنّ البعض... بينما هي لم تقم بتشويه تلك النعمة بطبقات المساحيق التي يضعها المهرّجون في السيرك، مما جعلها تُحافظ على روعة جمالها الطبيعي.

في الواقع... كل مرحلة من العمر لها جمالها الخاص

وعلينا أن نعطي كلٍّ منها حقهّا في الحياة

فالذي يمضي لا يعود... وإن عاد

عاد مبتور المشاعر.

أذكر كذلك طريقة كلامها الهادئ في لقائنا الأول، بدت وكأنها تقوم على ترتيل أنشودة دينية ملأت قلبي وقتها بعبير الإيمان والسكينة، أما شعرها فقد كان مثل شلال تدفق على أحد كتفيها، مما كشف عن الشامة المشعّة على شكل شمسٍ، أضاءت جيدها في الطرف المكشوف من نهاية عظمة الترقوة، فغدت كعصا سحرية تتأرجح ما بين البراءة والإغراء...

أذكر أيضًا أنها قامت مرة واحدة برفقة والدها لترقص بطريقة راقية كالفراشة وهي ترفرف على أنغام القدود الحلبية، تحيط ضحكتها شرائط من الأدب معقودة بالحياء العفوي، ويسطع على خدها الأيسر هلالاً يومض غمازة كلما ابتسمت...

أما ثغرها فبدا كحبة فستق حلبيّ قد أينَعت باكراً وحان قطافها، ولأول مرة رأيت كيف تكون آثار هبوب عاصفة رملية من كوكب المريخ استقرت على وجنتيها والأنف في هيئة بساط تبريزي محبوك من حبيبات النمش الأرجواني... بينما العيون كانت بمثابة غابة غنّاء تشدو بلا كلام، دخلتها مستسلماً لا شيء بحوزتي سوى الدهشة!

ما زلت أذكر جميع التفاصيل التي انتبهت عليها فجأة آنذاك، وكأن النصيب أتى ليفتح لي باب الفراسة كي أستقبله بأجمل ترحيب بحضور القلب الذي هتف نبضه باسمها، والعقل الذي صفّق إعجابًا بها، حيث قدحت شرارة الإعجاب من أول لقاء مشعلةً ما بقي مني بكل هدوء حد الاستواء..

بعد انتهائي من سنوات الدراسة الجامعية الطويلة مضافاً لها مدة الاختصاص، ومدة خدمتي الطبية في الريف، ومن ثم إعفائي من الخدمة الإلزامية كوني وحيداً لعائلتي، أخبرتني والدتي أنه أصبح لا بد من تأهيلي، فلا مناص بعد ذلك من التأجيل...

وبما أني لم أصادف شريكة حياتي أيام الدراسة، أو أنا الذي اختار أن تكون الدراسة ملء عينيه لأن الزواج مسؤولية عاطفية أكثر من أن تكون مادية فحسب... أوكلت مهمة اختيار شريكة عمري إلى نبع الحنان، وتلك المهمة في الحقيقة كانت رغبتها، إذ أن الرؤية النسائية في تلك الأمور أوضح بشكل ملحوظ كما فسرّت لي الأمر، لكن ظهور راية أمامي قد ألغى وكالة انتقاء الشريك المنصوصة التي تفضي بإبطال دور الوكيل عند حضور الأصيل.

أذكر أنه بعد رجوعنا من حفلة الزفاف تلك، بدأتْ الحوارات مع والدتي في انعقاد جلسات عديدة بخصوص راية... أتى في مقدمتها موضوع

الحجاب، سرعان ما لحقه قصص كانت مركونة على الرفوف منذ سنوات...

قالت لي والدتي حينها: عليك يا وسام أن تكون علاقتك مع راية ذو أساس متين قبل البداية.

سألتها حينها عن المقصود من كلامها، فأجابتني قائلة:

راية فتاة مثقفة ويبدو عليها أنها تملك شخصية قوية، ومثل هذا النوع من الشخصيات تكره المفاجآت بكل أنواعها وتحب أن تكون كافة المواضيع متفق عليها، كون تسليط الضوء من ناحية واحدة على بعض الأمور لا يصل إلى رؤية واضحة....

فإن كنت تريد أن تكون زوجتك سيدة ترتدي حجاب، فعليك بطرح رغبتك عليها قبل مضي الوقت، فإن وافقتْك كان جيداً، وإن قالت لك سأكون كما ترغب بعد الزواج فلا بأس، أما إن رفضت رفضاً قطعياً ما طلبتَ منها فالأفضل لك أن تصرف النظر عن موضوع الارتباط بها، فكما يقول المثل (الطريق الذي أوله نور آخره سلام)، والبلد يا بني مليئة بفتيات محجبات ينتظرنَ ابن الحلال...

ثم تابعت قائلة:

بينما والدك يا بني وضعني في قارورة وأغلق عليّ بإحكام عندما هددني بالطلاق إن لم أقوم بالالتزام بارتداء الحجاب...

يومها أصابتني الدهشة من الكلمات التي أخبرتني بها، وقلت لها متسائلًا للتأكيد: أبي فعل ذلك!

ردت على سؤالي:

نعم... أنا كما تعلم كنت أعمل عند جدك عاملة مراسلات مع الشركات الأجنبية في مكتب الاستيراد والتصدير الذي يملكه، وأباك كان يتردد على مكتبنا لمراجعة عقود العمل وكيفية تنفيذها وفق الشروط المتفق عليها...

كان رجلاً أنيق الهندام، وسيم الملامح ولياقته البدنية غطت على سنوات عمره... لقد كان قريب الخمسين بينما السنون لم تستطع أن تخط على وجهه أكثر من الخامسة والثلاثين حين وضعني القدر أمامه لأكون من نصيبه... كان زواجنا عرفيًا في بادئ الأمر، أتى الشيخ إلى منزلنا وقام بالمهمة، عقد مكتوب على ورقة بيضاء مع شاهدين أحدهما جدك بحضور والدتي.

سألتها مستفسرًا: ولمَ قبلتِ بالزواج منه بالرغم من فارق السن بينكما؟ وأنتِ تعلمين أيضاً أنه متزوج ولديه من البنات أربعة، أكبرهن قريبة من عمرك!

ردت عليّ بعبارة تحمل معاني واسعة، فقالت:

عليك بالتوازن ما بين البعيد والقريب، فالبعد يظهر الأشياء كاملة أما القرب فتراها بوضوح.

ثم تابعت: دعني أُكمل لك... أبي توفيّ بطريقة سيئة للغاية، لا يعلم بها سوى ثلاثة أشخاص فقط هم أنا وأمي وأخيها بالرضاعة...

سألتها بشيء من التعجب: وكيف ذلك؟!

فشرحت لي قائلة:

اضطربت أحوالنا المادية فغرق أبي في ديونه قبل دمائه، إذ لم يجد سبيلاً للوصول إلى حل أو طريقة لوفاء التزاماته أمام الدائنين، وحاول كثيراً أن يستجمع ما يملكه لسداد تلك الديون لكن باءت جميعها بالفشل، مما أدى إلى إعلان إفلاس شركته الاستثمارية، وحجز كل ما نملك من عقارات لبيعها في مزادٍ علني، فأوقعه ذلك في حالة اكتئاب شديدة.

وتابعت القصة بألم قائلة:

وسوس له الشيطان بالقيام بأكبر المعاصي والذنوب بعدما يأس من حالته، حيث قاده إلى الانتحار بمسدسه الشخصي بعد أن ترك خلفه ورقة يطلب منها السماح من الجميع، ونسي قوله تعالى: (ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً* ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً فسوف نصليه ناراً وكان ذلك على الله يسيراً)

الجهل وضعف الإيمان، وانعدام الثقة بوعد الله تعالى، وترك التوكل عليه واليقين به، وعدم المبالاة بالوعيد الشديد المترتب على مخالفة أمر الله تعالى يفتح طريقاً للإقدام على ارتكاب هذه الجريمة.

نسأل الله عز وجل أن يبعدنا من شرور الشيطان، ومن شرور أنفسنا وأن يغفر لنا ما تقدم من أخطاء ومعاصي.

قلت لأمي: لكن الذي أعلمه أن رصاصة طائشة خرجت من فوهة مسدسه عندما كان يقوم بتنظيفه...!

ردت عليّ قائلة: هذا ما قلناه للناس لكن الأمر مختلف.

ما يجري داخل منازل العائلات المعروفة أمور لا يعلم بها إلا أصحابها، للبيوت أسرار إن شاعت فقدت هيبتها وانطفأ بريق اسمها.

أحياناً نكذب على الآخرين كي نتحاشى تعليقاتهم السيئة ونختصر الألم على نفوسنا وأرواحنا، لأننا نعيش في مجتمع لا يرحم ولا ينسى

بينما لا نقدر أن نكون إلا صادقين مع ربنا الخالق، لأن الله تعالى هو الوحيد الرؤوف بعباده والغفور الرحيم، حسبنا الله ونعم الوكيل...

كنت أريد أن أعرف ماذا حصل بعدها، وكيف تداركوا ذاك الأمر أمام الناس، وعلى ماذا انتهت القصة، فما كان بي إلا وأن أسألها بشكل مباشر لأعرف الإجابة...

فردت عليّ حينها قائلة لي أن خالها قام بتمويه حقيقة وفاة والدها بمساعدة شخص يدعونه أبو مفتاح كونه يقدر الوصول إلى كل الأقفال على جميع الأصعدة، وذلك بعد إخراج شهادة وفاة مزوّرة كُتب فيها ما شاع عن السبب.

لكن بالطبع كل شيء وله ثمن.... فقد أخبرتني والدتي أنها كانت تعمل حينها في مكتب جدي بعد تخرجها من الجامعة مباشرةً لتعتمد على نفسها في مصروفها الشخصي، بينما كانت والدتها تأخذ مصروفها منه بشكل دوري كل شهر.

يومها داهمني الغموض فأردت معرفة التفاصيل، فسألتها عن السبب الذي جعل جدّتي تفعل ذلك فيما مضى!

فأجابتني قائلة: لأن جدك هو نفسه أخيها بالرضاعة.

قلت لها حينها: وهل هذا سرٌ أيضاً حتى أكون آخر من يعلم به؟

ردت عليّ بكل ثقة: آه يا ولدي...

هناك أشياء نتمنى لو أنها لم تكن وكانت

نحاول نسيانها لكنها أقوى من النسيان...

تنهش ذاكرتنا باستمرار إلى أن تجعلها فتاتاً يقتات عليها غرابيب الألم.

ثم اعتذرت قائلة: لن أقوم بالتوغل أكثر في ذاك الموضوع يا بنيّ... اذكروا محاسن موتاكم ولا يجوز على الميت سوى الرحمة، ثم أخذت تنفخ في صدرها متمايلة بين اليمين واليسار وهي تردد:

استغفر الله العظيم وأتوب إليك... استغفر الله العظيم وأتوب إليك، بعدها أردفت جملة قائلةً لي: داخل كل منّا رواية لن يرويها لأحد.

جعلتني يومها أضرب أخماساً في أسداس مستغفراً ربي أنا الآخر! ثم وعدتها بألا أتطرق إلى صلة القرابة تلك على نستمر بسرد القصة، لأعرف ما هنالك من أحداث...

معظم الأخطاء تُمحى...

لكن أثرها يبقى عالقاً على الصفحة الأولى للسيرة الذاتية

ليأتي الآخرون بآذانٍ مثقوبة يَغرفون بها ثمّ يرحلوا...!

حينها علقت على كلامي قائلة:

عندما ترغب بتسلق جدار الصمت

احذر عزيزي من كشف عورة الزمن...

وحين تخيط رداءً للفرح اجعله واسعاً قليلاً ليستر الألم.

ثمّ تابعت تتحدث عن الماضي، فقالت:

بعد انقضاء ستة أشهر على وفاة والدي، أتى جدك برفقة والدك لطلب يدي للزواج من ابنه... جدتك أي والدتي رحمها الله أصرت على

موافقتي على عرض الزواج بالرغم من وجود فوارق عديدة بيننا نحن الاثنين أنا وأبيك، معللةً بأني معتادة على نمط معيشي معين يغلبه الترف والثراء وقد لا أستطيع متابعة الحياة دون تلك الأجواء...

الظروف غالباً هي التي تكتب عناوين الرسائل

وليس الذين عاشوا بين سطورها كما نظن.

أما الحقيقة التي اكتشفتها لاحقاً أن جدتك أيضاً لا تريد الابتعاد عن تلك الأجواء من سفر إلى البلاد الأوربية، وشراء الملابس الباهظة من أشهر الماركات لحضور المناسبات الفخمة في الفنادق الراقية، والسهرات النسائية التي تقام في المزارع بإحياء فنانات الطرب و..... و..... و..... كل ذلك كان مغرياً لإتمام الزواج بصورة سريعة.

ثم ما لبثَ أن علمت زوجته الأولى بالأمر من جراء الثرثرة التي تتناقل بين النسوة، فكانت المفاجئة إعلانها بأنها على دراية بالأمر، وبأنها هي مَن عرضت على زوجها الزواج من امرأة ثانية من أجل إنجاب مولودٌ ذكر كونها لم تعد تستطيع الإنجاب عقب عملية استئصال الرحم لديها...

لا بدّ من التغاضي أحياناً، ربما يكون ذاك هو الدعامة الوحيدة لزواجٍ آيل للسقوط.

قلت في نفسي بل إنه كبرياء امرأة، بإمكانه أن يبني قصراً من القش، تابعت أمي قائلة:

ثمّ أتيت أنت إلى الدنيا، فكان مجيئك بمثابة تثبيت مسمار على شجرة العائلة ليكون الجميع سعيداً بولادتك، وخصوصاً جدّك لحملك اسمه بعد عناء انتظار... فأقام الولائم لمدة أسبوع كامل، مثل حفل تنصيب ولي العهد للعائلة الكريمة، ووُزعت الهدايا على الموظفين وَالصدقات على المحتاجين ...

وفي خِضم تلك الفرحة أتى والدك قبل تسجيلك في السجل المدني، حتى يضعني في خيار المختار لأنه يعلم أنه لا خيار لي سوى الذي اختاره...

فعلًا نحن مخلوقات لا تنسى بل تتظاهر بالنسيان.

كنت أنصت لباقي القصة حيث تابعت قائلة لي بان والدي أخبرها قائلًا لها: إما أن تضعين الحجاب فتصبحين زوجتي في الأوراق الرسمية أو تعودين لداركم كما السابق خاوية... خاوية من كل شيء.!

سألتها عن ردها في ذاك الوقت، فأخبرتني أن هذا شيئاً بسيطاً مقابل حبها لي، ولقد كانت فكرة الحجاب تملأ رأسها على كل حال... لكن الطريق التي سلكها والدي آنذاك جعل للأمر منعطفاً مؤلماً للغاية.

في الواقع...

بإمكانك الوصول إلى ما ترغب فيه بطرقٍ مختلفة لكن أفضلها وأسرعها الكلمة الطيبة.

جلسات الفضفضة التي بدأتها أمي لم تكن لتنتهي لو لا إصغائي لها بشكل جدّي ومشاركتها ما مضى من أحداث، كأنها كانت تنتظر اليوم المناسب كي تقاسمني الذكريات المؤلمة حتى تخفف عنها أثقالاً تعبت الروح من حملها...

والمرأة التي تزرع المشاعر الصادقة في قلوب أولادها، تحصد مع العمر أصدقاءً مخلصين.

قطعت وعداً لوالدتي على وضع النقاط على الحروف مع راية لتكون القراءة بيننا سلسة مثل كروج الماء في النهر.

جرت وقتها الاتصالات مع والدة راية وأسفرت على برمجة موعد في منزل العائلة للتعارف بين العائلتين بعد شهر من آخر اتصال.

6أنا بدوري اغتنمت تلك المدة بالاقتراب إليها بطريقة غير مباشرة، فقمت في إقحام فضولي في عالم (الفيس بوك) وبدأت بالبحث عن حسابها الشخصي... فقرأت المعلومات العامة في البيانات المدرجة آنذاك، راية حلواني من حلب، عزباء... تدرس هندسة التصميم الداخلي في الجامعة الأوربية.

كان فرعها الدراسي قريب من عيادتي، فأنا أملك عيادة صغيرة في حيّ الفرقان بالإضافة إلى دوامي في مشفى النحاس التخصصي القريب من دوّار الكرة الأرضية.... وهذا كان جيداً، فقد مكنني من العرج إليها كلما سمحت لي الفرصة بحجة أني أقوم بزيارة صديق الثانوية الذي يعمل رئيس قسم في كلية الفنون هناك، وهو أيضًا الصديق المشترك مع كلينا في العالم الأزرق.

توقف إصبعي فوق طلب الصداقة، أَأَقوم بطلبها أم لا؟

ترددت قليلاً ثم أتى القرار على عدم طلب الصداقة، فقد رأيت أن الوقت مازال باكراً على تلك البادرة.... اكتفيت بالتدحرج على شاخصات حسابها ابتداءً من المناشير وقراءة التعليقات إلى الصور الموجودة فيه، والتي كان أغلبها عن مجسمات جصية، ولوحات رسم بورتريه أو اسكتشات رسم باليد ثم صور تصاميم متنوعة لفنادق ومطاعم.... آخر المنشورات كان عبارة عن دعاء

(اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَاسْتَقْدِرُ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ إن كان خَيراً قَرّبهُ وَإن كانَ شَرّاً أَبعِدهُ)

ابتسمت بحالة لا شعورية، وهمست في قلبي حينها:

إن شاء الله خيراً.....

كانت سنتها الأخيرة في الكلية، ومناقشة مشروعها للتخرج بعد أسبوعين من ذاك الوقت، أردت حينها أن أشاركها اللحظة وفعلت....

دخلت المُدَرّج الذي أُقيم فيه تقييم مشروع التخرج، ثم أخذت لي مقعداً في بقعة مكتظة بالحاضرين في الصفوف الخلفية، بحيث أراها ولا تراني... جلست أراقب من بعيد كيف تمشي كيف تضحك، طريقة سلامها وأسلوب حركتها...

راية هي الفتاة المناسبة من دين وأدب، علم ونسب... طبعاً الجمال في مجتمعنا يبقى حاصلاً على حصة الأسد.

كل شيء أتى طبقاً للمواصفات المدونة في أجندة شريكة العمر، أعلم أنك تستغربين أيتها الأنثى وتعلقين في صميم سرّك (اظهر وبان عليك الأمان، ها هو الرجل الشرقي لا يتغير مهما حمل من شهادات وثقافة سيبقى يبحث عن الفتاة العفيفة الجميلة عندما يرغب بالزواج) أضيفي إلى ذلك عزيزتي أني ضد مساواة الرجل مع المرأة.

فالذي ينادي به كثير من المفكرين في الشرق والغرب في مجالات الحياة المتعددة يقوم على اعوجاج وقلة إدراك، فالإسلام لم يساوِ بين الرجل والمرأة في الأمور التي لو ساوى بينهما لظلم أحدهما، لأن المساواة في غير مكانها ظلم...

تترادف كثيراً المساواة مع العدالة في بعض الحالات، ولكنها تختلف في حالات أخرى، مثال على ذلك أن يساوي المعلم بين طلابه في الدرجات بينما هم في الحقيقة مختلفون في القدرات...

وكذلك ما تدعيه منظمات حقوق الإنسان من مطالبات لمساواة المرأة بالرجل في شتى مناحي الحياة، حيث إنّ المساواة هنا بلا شك قد تكون ظلماً للمرأة أو الرجل على حد سواء...

فالمرأة تختلف عن الرجل في صفاتها الجسدية، وفي مجالات الحياة مثل العمل والإنفاق وغيرها... والذي يركب رأسه بالمساواة يتحطم على صخرة الواقع، إنّ المساواة لا تعني العدالة بلا شك لأنّ المساواة في بعض المواقف قد تجافي العدالة وتحقق الظلم، والعكس صحيح، فقد يكون التمييز بين الناس وعدم مساواتهم في أمر معين هو عين العدالة.

نعم سيدتي...

بعض الأشياء لا تملك من صفاتها شيئاً سوى اسمها.

مع ذلك يبقى الزواج كما يقول الأجداد كنزول البحر مجهولاً، إما أن يُسكنك شاطئ السعادة أو يغوص بك إلى أعماق الزوابع والأعاصير...

بدأ أهالي الطلاب المتخرجين بالانصراف من الصالة، حيث بقى الطلاب يناقشون تعليقات أساتذتهم ويقومون بالتقاط الصور التذكارية مجتمعين أو متفرقين...

حينها اقتربت من راية بحيث تستطيع أن تسمع همسي، نظرت في عينيها وحركة شفاهي قالت كلمة واحدة (مبارك) أشاحت وجهها خجلًا قائلة: شكراً لحضورك...

وعند المساء أرسلت إليها على عنوان منزلها باقة زهور بيضاء من الزنبق والورد مع علبة شوكولا في قعرها بطاقة مكتوب عليها...

اليوم حولك الكثير من الأصدقاء

وقريباً شخص واحد سيكون لك الكثير.

ثمّ ما لبثت أن ركنت سيارتي أمام العيادة التي أعمل بها حتى وصلني إشعار على حسابي بطلب صداقة من راية عبّرت فيه عن قبولها الهدية والكلمات، من ثمّ قرأتُ في حسابها:

"ليس وهماً إن تراءت لي حروف اسمك على راحة يدي

فأنت القدر الذي عشت لأجله".

على الفور قيدت إحساسها بإشعار الإعجاب معرباً عن وصول الرسالة...

مرّت الشكليات بسلاسة، وتم إعلان خطوبتنا بصورة رسمية قبل حفل تخرجها من الجامعة، بناءً على رغبتها في حضوري حفل التخرج برفقة أهلها ومشاركتهم الفرحة في رمي قبعة التخرج عالياً بصحبة زملائها تعبيراً عن انتهاء مرحلة من حياتها ودخولها مرحلة جديدة...

ولقد كان حفل الزفاف ليس ببعيد كَون عش الزوجية جاهز ينتظر قدوم العروس فقط، حيث أنها تقع فوق شقة أهلي في مبنى مؤلف من طابقين وهي مهيأة من الدبوس إلى غرفة الأطفال... فأمي تعشق عبارة (كله على تمامه) أي كل شيء لا ينقصه أي شيء.

بالرغم من ذلك احتجَّت راية بعد الزواج مطالبةً بتغيير التصميم الداخلي والمفروشات لتنفيذ ما تعلمته أكاديمياً وتحويل الرسوم إلى وقائع....

لن أخبركم عن العبارات التي قيلت من جهة أمي وراية من الجهة الأخرى أثناء التبديل، لقد أحسست أن كلٍ منهما صاروخ أرض -أرض موجه نحو الهدف وسينفجر عند أي تعليق...

نصيحة لكل رجل متزوج...

من إحدى قواعد نجاح الحياة الزوجية، بل أهمها عدم نقل الكلام المتطاير بين الجهتين (أي بين والدتك وزوجتك) فقد تشعل ناراً لن تقدر على إخمادها حتى وإن أمست رماد.

سكنت السعادة منزلنا واستقرت المحبة فيه، إلا أن القلق بدأ يساور والدتي متسائلة بعد مرور سنة من زواجي: ألم تخبئوا شيئاً؟!

كنت أقول لها مُمازحاً: ماذا نخبئ يا نبع الحنان؟ وهل نجرؤ!

ردت عليّ قائلة:

أنت وحيدي يا عزيزي وأريد أن يمتلأ البناء أطفالاً يلعبون، ويرسمون لنا الحياة بألوان البهجة والأمل.

كنت أدعوها إلى الصبر بقولي: عساه خيراً يا أمي... كل شيء مكتوب في صفحات أقدارنا وما علينا سوى أن نجيد القراءة.

الجميع أمسى متشوقاً لمجيئ مولود وخاصة راية، فقد كنت أرى اللهفة في عينيها كلما رأت طفلاً صغيراً، وشعرتُ بمدى رغبتها في الحمل كلما سمعتْ عن نبأ حمل إحدى قريباتها أو صديقاتها...

لذلك بدأت أرغب في معرفة ما إذا كان هناك بعض المشاكل الطبية التي تمنع الحمل، كي نقوم بحلها بأقل تكلفة من الحزن.

وضعي كطبيب جعلني أعرف أنَّ من السهل جداً أن يتم فحص السائل المنوي لدى الرجل لمعرفة ما إذا كان جسده ينتج حيوانات منوية صحية كافية، أما بالنسبة للمرأة فإن الفحص أكثر تعقيداً، وينطوي عليه أنواعاً مختلفة من الاختبارات...

لذلك فمن المنطقي أن يبدأ اختبار الخصوبة مع الرجل أولاً.

في الواقع كان عليّ أن أقوم بذاك الاختبار مبكرًا أي قبل الزواج، لاكتشاف ما إذا كان هناك خلل، فذاك أمر هام جداً لأنه يمكّن من معالجة المشكلة بشكل أسرع.

العقم هو عدم القدرة على إحداث الحمل رغم مرور سنة على الأقل من المحاولات بدون استعمال وسائل منع الحمل...

تعقيباً لما ذكرت ذهبت وحدي دون علم أحد إلى مخبر التحاليل، ووضعت هناك عينة منوية....

واصلت الدعاء، وأنا أترقب النتيجة، أن يضع الله عز وجلّ داخلي ذاك المانع الذي يحول بين راية والأمومة، فأنا أقدر على تقبل الأمر بشكل سلمي ومعالجته بهدوء...

خذلتني نتيجة الفحص حاملة أرقاماً تشرح بأن كل الأمور عندي طبيعية ولا أعاني من أية مشاكل... لم أخبر زوجتي آنذاك بما آل القدرُ إلينا، كي لا تُصاب بحالة هلع، فتقوم بالجزم على أنها السبب في تأخر الإنجاب، وتضغط بعدها على العامل النفسي لديها.

آثرت أن أبقي النتيجة سراً عن الجميع، ثمّ اعتدت أن يكون الجواب لكل مَن يسأل عن موضوع الإنجاب أنه لم يحن الوقت بعد وكل شيء بمشيئة رب العالمين.

كنت أعارض بشدة ذهاب راية للفحص الطبي ما لم ترغب هي من تلقاء نفسها بذلك، بالرغم من طرح والدتي الفكرة مرات عدة، لا أخفي عنكم أمراً أن كل طفل مريض يزور عيادتي، أقوم بتقديم هدية بسيطة له فور دخوله غرفتي، وأتمنى أن يكون طفلي... أحمله بين ذراعيّ كما

يحمل الطفل اسم والده، وأتنفس رائحته... أدندن له كي يهدأ أثناء فحصه ثمّ أطمئن عليه بعد مدة لأتأكد من شفائه.

كان الله في عونك يا زوجتي الحبيبة، غريزة الأبوة طاغية فكيف هي الأمومة؟! بالطبع هي أشد وطئاً على الروح والجسد كالنار... حامية.

لم يستمر الانتظار طويلاً، ففي نهاية عامنا الثاني من الزواج أخبرتني راية أنها ترغب بإجراء كشف طبي شامل عن خصوبتها.

الارتباك قتلني بصمت عندما سألتني راية الذهاب معها لإجراء فحوصات خاصة بي أيضاً، خوفي على مشاعرها دفن لساني تحت سحب البوح عن حقيقة أني سليم صحياً وفيزيولوجيًا، فاخترعت حججاً واهية تمنعني من مرافقتها، وأني سأقوم بها لاحقاً.

الصَّمْتُ كَالسّيف تَمَامًا

أَحْيَانًا يَكُونُ فِي غمده حِمَايَةٌ

وَفِي بَعْضِ الأَحْيَانِ يُصْبِحُ خِيَانَةً

إِنْ لَمْ يَكُنْ مسلولا.

تكررت زيارات زوجتي إلى المخبر لإكمال جميع الفحوصات تزامناً مع أيام دورتها الشهرية وبعد الجماع... وكانت في كل مرة تلح عليّ لأقوم بالفحوصات اللازمة حتى أمسى لا بد لي من الذهاب معها آخر المطاف وإعادة الفحص من جديد.

راية سيدة حساسة جداً، تكتم حزنها وتقيد ألمها كي تطلق ابتسامتها الناعمة في رحاب الود فتداوي آلام الآخرين بأرق المشاعر....

صدرت نتائج فحصي قبلها وأتت بأني سليم صحياً، ابتسمت تقول لي كأنها جازمة في قلبها أنها السبب في تأخر الإنجاب:

خيراً إن شاء الله سنتخطى تلك العقبة معاً ونتابع مسيرة حبنا إلى أن نتوجها بطفل عائلته أنا وأنت....

كنت متلهفاً لأعرف ما الذي يعيق عملية الحمل عند راية ليتم علاجها وتكتمل سعادتنا... أتت أخيراً النتائج لكنها جاءت بطريقة صدمت كلينا...!

تبيّن وجود إفرازات عدائية بعنق الرحم لدى راية، تقوم بقتل الحيوانات المنوية، تمنعها من اختراق البويضة لإتمام الإخصاب....

هناك تركيب كيميائي مختلف للحيوان المنوي لكل زوج، وقد يتقبل رحم الزوجة بعضها، وقد يرفض هذا التركيب الكيميائي الحيوان المنوي ويعتبره جسماً غريباً عن جسدها، ليبدأ الرحم بإفراز أجسام مضادة للحيوان المنوي للزوج، تهاجمه وتمنعه من اختراق البويضة فلا يحدث حمل...

ويكمن العلاج في إبعاد الزوجين عن بعضهما لفترة ستة شهور، مما يقضي نهائياً في تلك الفترة على الإفرازات العدائية برحم الزوجة

وَيمنع تجددها ليمنح فرصة توافق إفرازات الزوجة مع إفرازات الزوج، أما في حال انفصل هذان الزوجان وتزوجا من آخرين يمكنهما الإنجاب بلا مشاكل.

هذا كل شيء...! أصابتنا حينها لحظات ذهول، وقفنا كالتماثيل الخشبية... طفنا في نهر الدهشة وساح بنا التيار إلى دوامات مجهولة، كلّ منّا حاول إمساك يد الآخر لإنقاذه وإيصاله إلى بر الصواب...

ابتسمت راية كعادتها قائلة وأنا أعلم أنَّ في داخلها بركاناً يغلي:

أيُعقل؟ بعد هذا الحب والانسجام الذي نعيشه في النور يكون ظلّه قاتل ومقتول! ربنا لا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به....

مددت يَداي نحوها فألقت بيديها فيهما، قمت في حضنهما بشدة وأغلقت عليهما بأصابعي، رَفعتهما نحوي وقبلتها هامساً فيهما:

الصبر عزيزتي إن الله مع الصابرين... الأمر بسيط جداً، نحن معاً أقوى إنها ستة شهور فقط، وسيكون كل شيء على ما يرام والحمد لله على ما اختاره لنا رب العالمين.

الإيمان بالقضاء والقدر هو السعادة، هو ركن الإفادة من هذه الدنيا والاستفادة... منه تنشرح الصدور ويعلوها الفرح والحبور لتنزاح عنها الأحزان والكدور، فما أحلاها من حياة عندما يسلِّم العبد زمام أموره

لخالقه، فيرضى بما قسم له ويسلِّم لما قدّر عليه، فيسعد في الدنيا ويُؤجر في الآخرة.

طلبت من راية أن نكتم على نتيجة الفحوصات، وأن يبقى سبب عائق الإنجاب سراً بيننا إلى أن تظنّ والدتي أني السبب في تأخر الإنجاب ثمّ تلوذ بعدها بالصمت، لأنها لو عرفت بالأمر الحقيقي حتماً سوف تلح بأن أتزوج مرة ثانية لترضي شوقها إلى حفيد أصبح يشغل قلبها وتفكيرها، وأنا لا أريد أن أدخل معها في مناظرة في حق الأبوة بينما إذا كان الأمر عكسي فسوف تحشرني في زاوية بقاء المرأة مع زوجها في الضرّاء قبل السراء....

مضى النصف الأول من عامنا الثالث متبعين تعليمات العلاج تلاه النصف الثاني مترقبين حدوث نبأ يسعدنا في نهاية كل شهر لكن..... لم يحصلْ أي حمل!

لفت السماء وجه الشمس في آخر يوم من ثالث عام لزواجنا مُخبِأةً إياها وراء سحابةٍ رمادية، مُنذرة بهطول زخات خفيفة من المطر....

كان قلبي يخفق بشدة، معلناً عن انتفاضة هدفها إسقاط الحرمان من الأمومة لدى راية... لم أستطع أن أهتف بها فكتبتها على ورقة مرفقة بقطعة ذهبية عبارة عن قلب داخله كلمة أمي، وضعتها على طاولة الطعام ثمّ ذهبت إلى العمل.

كتبت في الورقة:

عزيزتي راية...

لا تصنعي من الحب رصاصة تقتل حلمك

بإمكانك أن تغيري الطريق وتسكني عشاً آخر.

كنت غبيًا...! كيف أقدمت على هذا الجنون؟

ماذا لو تركتني حينها ورحلت دون وداع !

ليلتها كان الرعد يقصف بشدة ما بقي من نبضي...

عدت من عملي فوجدت الورقة كما هي بجانب العلبة على طاولة الطعام في الصالة، تساءلت مع نفسي:

هل قرأتْها؟ وقتها ظننت أنها لم تنتبه إليها.

أخذت الورقة كي أمزقها قبل أن تراها فقد عدَلْت عن اقتراحي الأحمق، وأريدها معي في جميع الأحوال، فأنا غارق في حبها إلى عمق الأنانية.... لكن رائحة عطرها فَاحت من الورقة!

مؤكد قد اطلعت عليها، تَرَاقَص زجاج النوافذ من قوة الرعد مع الحروف التي كتبتها راية على ظهر تلك الورقة، ثم بدأ الغيث بالتراخي مع انحناء نظراتي لحمل ما خطت يدها.

فقد قرأت ما كُتب عليها:

" لو كنت تعلم مقدار حبي لك لما طلبت مني هذا الطلب يا وسام"

وقتها صرختُ ملء الندم واخترق غضبي جدار الصوت، ورحت أردد بكل ألم: راية أرجوك لا ترحلي...

خرجت راية من غرفة النوم وهي بكامل أنوثتها، ركضت نحوي لنتعانق حول جراحنا معًا فاختلطت الدموع هامسة في أذني:

حبيبي إن كان حلمي سيتحقق فهو منك ومعك فأنت سيد أحلامي... ثم أخذت العلبة قائلة لي: عليك أن تلبسني إياها بأناملك فلا أحد سواك يعبث بأحلامي.

ثمّ انقطعت تلك اللحظات بعد طرق عنيف على الباب! ركضت مسرعاً لأكشف ما ورائه، كانت أمي تريد معرفة سبب الصخب في مثل ذاك الوقت!

من إحدى قواعد نجاح الحياة الزوجية أن يكون مكان إقامة الزوجين بعيد نسبياً عن مكان إقامة الأهل.

كررنا العلاج في عامنا الرابع، النصف الأول منه ابتعدنا فيه عن العلاقة الجنسية المباشرة، ثم قمنا بالمحاولة في النصف الثاني...

أمست الأمومة هاجساً عند راية، ورغبتها الشديدة بأن تكون أماً سببت لها اضطرابات في الغدة النخامية المسؤولة عن الهرمونات الأنثوية، ممّا أدى إلى انقطاع الطمث عندها وظهور أعراض الحمل من غثيان وقيءٍ صباحي رافقها اتساع الصدر ونفخة في البطن من ثم الوحام....

كانت سعيدة جداً بما شعرت به بعد ظهور نتائج الاختبار المنزلي الإيجابية للحمل، فبدأت تحلم بقدوم المولود وتقوم بتجهيز ما يلزم له من ألبسة ومقتنيات خاصة به، لكن للأسف لم تدم فرحتها طويلاً بعد أول زيارة لطبيب النسائية في الأسابيع الأولى، وعمل اختبار الموجات فوق صوتية الذي أظهر أن كيس الجنين فارغ فيما تبيّن أنه لم يكن سوى وهم أوقع راية في فخ الحمل الكاذب.

احذروا الوثوق في الطرق المرسومة على الورق، أغلبها ليست بصحيحة.

حسنًا... الأمر معقد بعض الشيء، حيث يحدث بالفعل تلقيح أو تخصيب للبويضة من الحيوان المنوي، وتأخذ البويضة الملقحة رحلتها داخل الأنابيب إلى أن تصل جدار الرحم ثم تنغرس فيه...

إلى هنا كل الأمور طبيعية، ثمّ تنقسم بعد ذلك بعض الخلايا لتكوين الجنين، ويتطور البعض الآخر لتكوين المشيمة والأغشية... في هذه الأثناء قد تتوقف الخلايا المسؤولة عن نمو وتطور الجنين عن العمل، بينما تستمر الخلايا التي تكون المشيمة والأغشية المعروفة بكيس الحمل في التطور وتكوين الكيس بالفعل.

حتى الآن لا يوجد سبب علمي محدد لتوقف نمو خلايا الجنين، ولكن يرجح أن يكون السبب خللاً في الكروموسومات (الصبغيات) خلال

عملية الإخصاب، بينما يتم إنتاج هرمونات الحمل وتصاعدها بسبب استمرار خلايا المشيمة في التطور مما يجعل التحليل الرقمي -الذي يقيس نسبة هرمون الحمل في الدم- يعطي نتيجة إيجابية بحدوث الحمل... ليكتشف الطبيب أثناء التصوير تكون كيس الحمل الفارغ وعدم ظهور الجنين أو سماع النبض بداخله.

عادة ما يحدث الحمل بكيس فارغ، ويتم اكتشافه في مرحلة مبكرة جداً قبل حلول الشهر الثالث -الأسبوع التاسع- من الحمل، فمن المفترض سماع نبض الجنين في الأُسبوع السابع للحمل، أما في حالة عدم سماع النبض، وعدم رؤية خلايا الجنين عن طريق الفحص بالتصوير، فإنه يشخص الحمل على أنه حمل بكيس فارغ.

وقد تطلب من راية الانتظار حتى يحدث لها إجهاض بشكل طبيعي بعد انخفاض مستويات هرمونات الحمل نهائياً، مستغرقاً الأمر عدة أسابيع لتظهر أعراض الإجهاض من تقلصات الرحم والنزيف... لكنّ طبيبها المختص فضّل خضوعها لعملية جراحية صغيرة من أجل تنظيف الرحم.

تعرضت راية من إثرها لصدمةٍ نفسية عنيفة سببها ضغوطات مجتمعنا الشرقي، وقد أصبحت قلقة جداً حيال فكرة تكرر الحمل الكاذب مرة أخرى، ولكني أخبرتها أن معظم النساء يحصلن على حمل ناجح في

المرة التالية مع اتباع تعليمات الطبيب والحصول على نظام غذائي صحي.

أعترف أن والدتي لعبت دور الضاغط الأكبر على تلك الحادثة لرغبتها الشديدة في أن ترى أبنائي والتي ازدادت بعد حادثة اختفاء والدي الغامض منذ زمنٍ قريب!

لازمتُ راية حتى تعافت من خيبة الأمل تلك بمساعدتها على تقبّل الحقيقة إلى أن اختفت أعراض الحمل الوهمية تدريجياً من ثم عادت إلى ممارسة حياتها بشكل طبيعي.

امنح الحب سيعود إليك من تلقاء نفسه قبل أن تطلبه.

وقبل نهاية العام الرابع من زواجنا تقريباً، عرضت راية على مسامعي فكرتها الجنونية، ومن ثمّ ألحّت عليّ لتنفيذها بحجة أنه الحل الأمثل لقدوم طفل يحمل اسم العائلة، وبأنها ستكون راضية تماماً لذاك الزواج.

يا سبحان الله، قلب المرأة دليلها كما يقولون...

لكن أخبرتها بأن فكرة الزواج من امرأة ثانية لم تجد زاوية حتى أقوم بركنها في بالي فقد دخلت في إذن وخرجت من الأخرى...

أعرف زوجتي جيداً لربما الغيرة تنهش قلبها إذا الكبرياء وقف يوماً أمام عاطفتها فاستسلمت له بسهولة ليسد جميع الأعذار.

انقطع شريط ذكرياتي على اتصال آتى من جوالي أسفر عن حالات طارئة ملأت المشفى التخصصي الذي أعمل فيه، مما جعلني أضطر بعدها بالدخول إلى قلب الحدث.

كانت الفوضى عارمة في كل ركن من المشفى! دماء الأطفال رسمت على الأرض لوحة قاسية أخبرتني بأن هناك فاجعة قد حصلت.... نحيب بكائهم قرع ناقوس الخطر عدة مرات دون جدوى إلى أن حطمه إلى أجزاء نثرها في أرجاء العالم منادياً بحقوق الطفل وأهمها حق العيش بسلام.

عشرات الأطفال تسقط كل يوم بين قتيل أو جريح، ومَن ينجو منهم يشهد أحداثاً عنيفة ليسوا ملزمين أبداً برؤيتها... فتترك فيهم آثاراً مروعة من ندوب جسدية أو نفسية، لا شيء يبرر قتل الأطفال وانتهاك أحلامهم بأعصابٍ باردة...!

اتصلت مع راية وأخبرتها بأني سأتأخر عليها تلك الليلة، وربما أبات في المشفى لظروف طرأت على واجبي كطبيب... لم يعد لعيد زواجنا معنى والأوضاع سيئة للغاية، فما قيمة الاحتفال في ظروف حزينة! وما قيمة الذكرى السعيدة في حاضر مؤلم!

لقد قام جميع طاقم المشفى من أطباء وممرضين طوال الليل بإسعاف كل الحالات من تقطيب الجروح وتجبير الكسور إلى العمليات الجراحية

التي تستدعي الأمر... إلى أن انتهينا مع بزوغ أول شعاع ضوئي من أصيص الشمس معلناً لبداية يومٍ جديد.

أردت أن أقوم بجولة اطمئنان على الأطفال قبل مغادرتي المشفى، جميعهم كانوا مع ذويهم يحيطون بهم بالرعاية والاهتمام، إلا طفلة صغيرة لا يتجاوز عمرها الثلاثة شهور، ترقد وحيدة في سرير الأطفال وقد وُضع في وريد يدها إبرة تمدّها بالمحلول السكري.

أخبرتني الممرضة بأن فريق الدفاع المدني أتى بها إلى هنا بعد انتشالها من تحت الأنقاض...

لقد شاهدوا امرأة محتضنة إياها بشكل قوقعة لحمايتها من انهيار سقف الغرفة عليهما، قالوا على الأغلب هي والدتها، ولقد حاولوا كثيراً إنقاذها لكن دون جدوى للأسف، وبعد قليل ستأتي مندوبة جمعية (أُفق) لأخذ الطفلة معها، وهي جمعية تقوم على رعاية الأطفال الذين فقدوا أهلهم جرّاء براثن الحرب.

حسبنا الله ونعم الوكيل كم تشرد من أطفال بفقدانهم الأمان والحضن الدافئ...!

أتاني هاتفٌ ليس بغريب يلحُّ عليّ بأن أتقدم من الطفلة أكثر، ساقني إحساسي الأليف إليها إلى أن قاربت سريرها...

بدأت أسمع صدى نبض قلبي تحت قبة الجمجمة، شيء ما حرره من القفص الصدري وحطَّ به في الرأس، ساقاي ترتعشان وقدماي بالكاد تحملني... لمَ كلّ هذا الاضطراب؟ لا أدري!

كانت الصغيرة متدثرة بشرشفٍ ملون لا يظهر منها سوى بعض خصلات شعرها المموج، وبقلقٍ مرعب رفعت عنها الغطاء ورأيت وجهها الصغير...

يا إلهي... إنها ابنتي...!

(2)

العقل قائدٌ جسور

أما القلب فسائقٌ أرعن

شخص يجلس وراء طاولة مكتب أمامه بطاقتين يقرأ البيانات المسجلة في كل واحدة منها، فأتت البطاقة الأولى بالمعلومات التالية...

الاسم: أحمد جواد

النسبة: الحسن

اسم الأب: محمد ربيع

اسم ونسبة الأم: أمينة عقيل

محل وتاريخ الولادة: منبج 7-8-1987

الجنس: ذكر، لون الوجه: حنطي، لون العينين: بني

العنوان: منبج خلف مركز البريد

العلامات المميزة: ندبة على أسفل الذقن

تاريخ المنح: 26 - 3- 2002

ثمّ أخذ الرجل يقرأ المعلومات في البطاقة الثانية...

الاسم: مصطفى جاد

النسبة: الحسن

اسم الأب: محمد ربيع

اسم ونسبة الأم: أمينة عقيل

محل وتاريخ الولادة: منبج 7 - 8- 1987

الجنس: ذكر، لون الوجه: حنطي، لون العينين: بني

العنوان: منبج خلف مركز البريد

العلامات المميزة: ندبة على أسفل الذقن

تاريخ المنح: 26- 3- 2002

أصابت الدهشة الموظف في السجل المدني لمدينة حلب على تطابق المواصفات بين الشابين عندما وقفا أمامه يستلمان البِطاقات الشخصية مُعبراً عنها بقوله: يبدو أنكما توأم حقيقي، بل إنكما شخص واحد! باختلاف الأسماء فقط والبصمات طبعاً... لكن تلك الندبة على الذقن ما قصتها؟! إنه لأمر غريب حقاً!

داس جواد بقدمه على طرف قدم أخيه مُنذراً له بالصمت ليُجيب عنه شارحاً قصة الندبة للموظف قائلًا له:

عندما كنّا صغاراً في سن الثامنة تقريباً، كنت ألعب الكرة مع أطفال الحارة فتعثرت على الإسفلت الخشن مما سببت لي جرحاً عميقاً تطلب تقطيبه خمسة قطب...

وفي ذات اللحظة تماماً سقط أخي جاد من أعلى شجرة التين التي في حديقة دارنا عندما كان يقطف بعضاً منها لأمي آنذاك فقد أصابها الوحام أثناء حملها بأختي الصغيرة، وذاك السقوط سببّ له جرحاً على الذقن تطلب خمسة قطب جراحية أيضاً....

حضرتك تعلم أنه غالباً ما يرتبط التوائم ارتباطاً عاطفياً ونفسياً يجعلهم يشعرون بآلام بعضهم البعض يصل أحياناً لحد وجود حالة من التخاطر، حيث يشعر كل منهما بمشاعر الآخر عن بُعد مما يدفعه لأن يشاركه في الألم أو الفرح... وأكبر مثال على ذلك بدا عندما تعثرّت وشعرت بالألم، شعر على الفور أخي التوأم بذلك بالرغم من أنه كان كلٌّ منّا في مكانٍ آخر... ثم زلقت قدمه من على غصن الشجرة و....

قاطعه الموظف قائلًا له:

حسناً... حسناً كفى ثرثرة

يا سبحان الله أنتما نسخ لصق...

ناهياً تعليقه بقهقهةٍ مسموعة جعلت كل مَن في الصالة يقف شاخصاً لغرابة الموقف....

قاما الشابان بِاستلام بِطاقتهما وهَمّا بالعودة إلى مَدينتهما مُتجهين إلى مركز انطلاق الميكروباص، وقد باشر جاد بتأنيب أخيه قائلاً:

لماذا كذبت على الموظف في قصة الندبة؟

ردّ عليه جواد: وما فائدة أن أقول له الحقيقة!

علّق جاد على كلام أخيه: هذا لأن الكذب حرام.

ردّ عليه جواد: هذه كذبة بيضاء.

تابع جاد قائلًا:

بيضاء سوداء حمراء.... اسمها كذبة والكذب لطّخك بجميع الألوان من رأسك حتى الساس وما زلت تكذب!

أنت مثل الموشور المثلثي تماماً عندما تقوم بتلوين كذبك بمهارة فائق وهي في الأصل تحمل اسماً واحد.

قاطعه جواد قائلًا لأخيه: كفاك فلسفةً... احترم أخاك الكبير.

استدار جاد نحو جواد وهو يقول:

هل تحسب الساعة التي فصلتنا في الولادة فرقاً؟ ثمّ أنت مَن أضاع عليك فرصة الجزم بأنك الأكبر... إذا أمي نفسها لم تعد تستطيع التمييز بيننا بعد جريمتك التي فعلتها بي في السنة الماضية.

ردّ عليه جواد: كان لا بدّ منها فقد تعبت من الجميع ومن تكرار سرد الفوارق التي بيننا وخاصةً والدك... جواد الكسول أما جاد فهو مجتهد،

جواد.... جواد الشر أما جاد... جاد الخير، جواد عاق وجاد بار... كانت الندبة هي الفارق الوحيد الذي أملكه زيادة عن مما كان يميزّني من أول نظرة، والآن نحن متساويان.

قاطعه جاد:

لا... لسنا متساويين يا جواد سنبقى نعرف كل منّا الآخر، حتى وإن لم يميّز بنا أحد.

رد جواد: لا يهم.

تابع جاد قوله: بل يهم يا أخي... لا تزر وازرة وزر أخرى... أي: وازرة النفس لا تحمل حمل غيرها، كل إنسان مسؤول عن خطئه... مُحاسب عن عمله ولا يتحمّل شخص إثم الآخر مهما كانت صلة القرابة بينهما.

قاطعه جواد قائلًا بلهجة ساخرة: تابع عظاتك لاحقاً، لقد وصلنا كراج الانطلاق... هيّا اصعد أستاذي الفاضل.

تلك من أبسط المشكلات التي يعيشها جاد مع أخيه فبعد الندبة التي سببها جواد له لم يعد جواد يأكل العقاب بمفرده، فإما أن يأكلاه سوياً أو يعفي والدهما عنهما معاً، لأن جواد بارع جداً في تقليد جاد بطريقة كلامه وتصرفاته وكيفية جلوسه عندما يرغب بذلك أو عندما يتطلب الأمر، مما يوقع والدهما في الحيرة مَن هو جواد ومَن جاد...

من المؤكد أن التعامل معهما أصبح مختلف تماماً عن الفردي، لأنه سيكون مضطراً لأن يُعامل شخصين في الوقت ذاته على أنهما شخص واحد.

لقد بدأ جواد برسم خطته للسيطرة على جاد، وجعْله ينقاد لما يرغب، أو يشاركه أفكاره الجنونية عندما كانا في الصف الثاني الإعدادي (الثامن)... تحديداً يوم توزيع الجلاء المدرسي لآخر السنة الدراسية، لاحظ جواد يومها توتر جاد رغم حصوله على الدرجة الثانية في الصف وتلعثمه بالكلام عندما قال له: هيّا بنا نذهب لنحتفل في دكان أبو خليل للألعاب الإلكترونية.

لكن جاد عارض الفكرة قائلًا لأخيه: فكّ عني جواد، لا مزاج لي لمثل تلك الجلسات الصاخبة سنذهب لاحقاً إلى هناك!

قرر جواد حينها أن يراقب أخيه ويعرف ما سبب تلك التغيرات التي طرأت عليه فجأة، فجاد ذو شخصية قوية لا يهزّه إن تراجع مرتبةً في صفّه، وهو لا يُخفي عنه شيئاً مُنذ نعومة أظفاره...

لذلك قام بملاحقته إلى ما وراء جدار المدرسة ليشاهده ينحرف إلى زقاق ضيق يلاحق فتاة تصغره صفاً تدعى آيات يحاول الاقتراب منها ممسكاً بيده علبة صغيرة مغلفة بورقٍ أحمر وشريط برّاق أصفر مع ظرف صغير بداخله رسالة على الأغلب، متمتماً لها بكلمات غير

مفهومة من بعد إلقاء السلام عليها باسطاً يده نحوها فأخذت الفتاة العلبة والظرف ثمّ أسرعت تتوارى عنه وهي تبتسم خجولة.

استدار جاد حتى يعود أدراجه ليسقط من نظرة أخيه في جرمٍ مشهود اسمه آيات، ومن حينها بات أعرجاً أمام رغبات جواد ومكائده... يُهدده بها كلما شاء والأكثر من ذلك عندما خطط أن يجعل أخاه يشبهه تماماً بردم الفارق الذي بينهما...

فجواد وُلِدَ بتشوه خُلقي طفيف في أسفل ذقنه على شكل ندبة وكانت الدليل الوحيد على أنه متلبساً في شتّى مقالبه، ولكي يُخفف عنه العقوبات أراد أن يرتقي إلى درجة الشبهات بأن يتشارك مع أخيه تلك الندبة اللعينة.

فقام بتعطيل مكابح دراجة شقيقه الهوائية ومن ثم دعاه لسباق نزول التل، هوى جاد مسرعاً وهو يحاول الضغط على المكابح... لكنّه لم يستطع إيقاف دراجته وهو يطير على المنحدر، وقبل وصوله إلى النهاية كان في طريقه حجارة من القرميد مصفوفة على عرض الطريق جعلته طريح الحصى مجروحاً أسفل ذقنه في ذات المكان وفي نفس البقعة التي يملكها جواد...!

استقبله أخاه بابتسامةٍ خبيثة ويده تجس ندبته، قائلاً له:

الحمد لله على سلامتك حبيب الروح.

بانَ لجاد لاحقاً أن الحادث لم يكن قضاءً وقدراً كما ظنّ بل كان مقصوداً عن عمد، ولكنه اختار الصمت بعد سماعه اسم آيات على لسان أخيه عدة مرات فهولا يريد الإساءة لها أو دخولها في أية مشاكل إن فضح جواد لقائهما الأول لتشويه سمعتها في المدينة.

ويعرف أيضاً أنه بإمكان أخيه أن يُؤلف الروايات والقصص عليهما مقابل حصوله على زَيف النصر، حتى وإن تقطّع الحبل السرّي خَاصتهما إربًا إرباً فلن يهمّه فقدان ذاك الرابط الأخوي حتماً.... مَدينتهما صغيرة وكل العائلات تعرف بعضها البعض، والخبر فيها ينتقل بسرعة النار في الهشيم.

ها قد وصلا منبج عصراً... دخل جاد غرفته لمتابعة دراسته فهو مصمم أن يتخطى معدله الخامسة والتسعين بالمئة في الشهادة الإعدادية، بينما جواد آثر النوم مطمئناً بعدما حصل على مراده في تطابق بِطاقتهما الشخصية وأن ما خطط له سابقاً سيؤول إليه بالنفع مستقبلاً إن لزِمه الأمر...

اقترب موعد الامتحان وكل منهما مشغول بما يَهمّهُ، فجاد تمّكن من المنهاج الدراسي حيث أعاد دراسته أكثر من أربع مرات، بينما أخاه كان منخرطاً بمغامراته وتجارته في حمل علب السجائر المحلية وصناديق الشاي إلى جرابلس، ومنها إلى الحدود التركية في نقطة غير

مرئية من الجمرك التركي يتم فيها البيع إلى المهرّب الذي ينتظره هناك.

كان يذهب في رحلته تلك كل يوم، وفي نهاية الأسبوع يكون قد جمع مبلغاً لا بأس به يُخوّله النزول إلى حلب ليبتاع من شارع بارون بعضاً من النظارات الشمسية المقلّدة والأحزمة الجلدية، وإن تيسّر له المال يشتري عدداً من بنطلونات الجينز....

من ثم يعود إلى منبج ليعرضها على المحلات أو على بائعي البسطة المتواجدة في السوق المسقوف أو السوق المغطى كما يسمونه باللهجة المحلية لمدينة منبج وسكانها، أما في السجلات الرسمية يسمى سوق عُكاظ... في حين يقول العارفون بأحواله وتحولاته إن عكاظ هو فرع للسوق وليس كله، يمتد على مسافة تقارب الألف متر وتتفرع عنه أسواق فرعية صغيرة هي جزء منه، وقد كان امتداد هذا السوق يرسم ملامح منبج القديمة قبل أن تجتاح الحركة العمرانية أطراف المدينة وتسير نحو التوسع...

تاريخ السوق شبه مجهول، لكن من المؤكد أنه يتجاوز الثلاثة قرون، ويتفق كل التجار فيه على أن الشركس هم المؤسسون لهذا السوق إبان هجرتهم من ديارهم إلى هذه المناطق وسكنهم في منبج، حيث تُعرف منبج بأنها كانت ذات أغلبية شركسية في فترات طويلة من الحقبة

العثمانية حتى الانتداب الفرنسي وتأسيس الدولة السورية ومن ثم تراجع حضورهم في السوق...

والآن يُعتبر هذا السوق نموذجاً مصغراً لمكونات منبج كما أنه نموذج للنشاط والحركة الاقتصادية في المدينة، حيثُ نجد في السوق الكردي بجانب العربي والتركماني والشركسي يمارسون مختلف الأنشطة التجارية من بيع وشراء.

وهكذا كان جواد يعمل بالتجارة على طوال السنة الماضية حتى بات يملك مبلغاً من المال شجعه على شراء دراجةٍ نارية تُعينه في عمله، وفي أشياء أخرى كان يرميها في بئر الأسرار.

تجسّد معنى التناقض في الأخوين جواد وجاد على أنهما شخص واحد يملك صفات مزدوجة بين الصخب والهدوء، بين الجنون والعقلانية، بين الرغبة والحكمة، الجرأة والخجل، وما بين المكر والطيبة، الشجاعة والخوف، وبين القوة والضعف، هذا لأن جواد كان يبحث عن الكمال في شخصيته فتارة يكون جواد وتارة يصبح جاد بحسب ما يُمليه عليه المكان والزمان أو الظرف والموقف مما أثّر سلباً على جاد وقيدّه في خانة الصفر على الشمال.

حاول جاد كثيراً أن يخرج من دائرة الالتباس مع شقيقه بعروض باءت جميعها بالفشل، حتى إنه اقترح عليه ذات مرّة أن يقوما بوشم اسم كل

منهما على معصمه ليكون إثباتاً يتعرف إليهما الناس والأقرباء، أتى به جواد بالرفض قطعياً بحجة أن الوشم حرام، وأن الموشوم لا يُدفن في مقابر المسلمين، وهو لا يريد أن يبتعد عن جدّه الأكبر ربيع إن وافته المنية...!

وكان كلمّا قام جاد بتغيير تسريحة شعره، يذهب جواد إلى الحلاق مباشرة ليقوم هو الآخر بتغيير تسريحته أيضاً على ذات شكل تسريحة أخيه، فيقول له الحلاق: منذ قليل أتى جاد.

فيرد عليه جواد: أنا جاد...! إنه جواد الذي أتاك منذ قليل.

يضحك كلاهما ليتابع الحلاق كلامه: لا فرق بينكما، فكلما تكبران تشبهان بعضكما أكثر في الملامح والتصرفات حتى أمسينا لا نكترث بمَن يكون جاد أو جواد.

يبتسم جواد أمام المرآة، فهذا ما يصبو إليه....

تسلّم الأخّان بِطاقتهما لدخول امتحان المرحلة الإعدادية، وكانت المفاجأة لجواد بأنها أتت بترتيب حسب الحروف الأبجدية لِلاسم الأول وَليست للاسم الثاني، فَالاسم الأول لجواد هو أحمد والاسم الأول لجاد هو مصطفى والألف بعيدة عن الميم، مما جعل كل منهما في قاعة امتحان مختلفة.

خابت آمال جواد في جلوس أخيه في نفس القاعة، فقد كان معتمداً عليه إن استعصى عليه جواباً لسؤال ما، أما جاد فقد تنفس الصعداء أخيراً بابتعاد جواد عنه ولو لفترة مؤقتة، فقد كان يعلم أنه لن يسلم من مضايقته في الامتحان.

يبدأ الامتحان عادةً بالمواد الاجتماعية من تاريخ وجغرافيا وتربية، ثم تأتي في الوسط العلوم والصحة من كيمياء وفيزياء وعلوم طبيعية، لتنتهي باللغة العربية، يتخللها التربية الدينية والرياضيات ثم اللغة الأجنبية، كان جاد واثقاً من تقديمه للمواد المذكورة بشكل جيد جداً أما جواد فقد كان يتأرجح بين النجاح والرسوب.

وأخطر مادة هي اللغة العربية، فإن لم يتجاوز معدل النجاح بمفردها يكون قد ضمن الرسوب في جيبه، أما هو لا يريد أن يتأخر عن أخيه سنة دراسية واحدة... ماذا يفعل ليقفز إلى ضفة النجاح؟

ومضت في نفق فكره خطة جهنمية أراد أن يصنع منها جسراً يغطي منها هوة الفشل كي يصل إلى ضفة النجاح، وقد قرر أن ينفذها بالرغم من عدم يقينه لمشاركة جاد بها.

اختفى جواد عن الأنظار من بعد ظهر اليوم الذي يسبق موعد امتحان مادة اللغة العربية راكباً دراجته النارية منطلقاً بها إلى بلدة قريبة من مدينته، وهناك توجّه على الفور إلى صيدلية ليشتري علاجاً قوياً

لمكافحة الإمساك، فقد أراد أن تكون أداة الجريمة بعيدة عن مدينته نوعاً ما حتى لا تشي به، وتقع في أيدي التحقيق إن فضح أمره.

قال له الصيدلي: كبسولة واحدة منه تكفي، ويمكن أن يرافق استعماله مغصاً في البطن.

ردد جواد في خاطره: وهو المطلوب... ثم عاد إلى المنزل قريب المغيب داخلاً غرفته ليفتعل الدراسة بعد تنفيذه جزءً من الخطة.

أما جاد فكان غارقاً في بحور الشعر لا يعلم ما يخبئه له الغد!

بدأ الصباح إقلاعه الأول وجواد ما زال نائماً عندما دخل أخاه الغرفة ليوقظه كي يتهيأ للذهاب معاً إلى الامتحان الأخير والأصعب.

قبل مغادرته المنزل نسف جواد ثلاث كبسولات إلى جوف معدته، من ثمّ انطلقا إلى المدرسة التي يّقدمان فيها الفحص، وفي الطريق شكا جواد من الإعياء والتعب إثر سهره بالأمس لمراجعة المنهاج كما ادّعى...

لم يجرؤ أن يقول الحقيقية لأخيه فقد أتاه من منعطف المؤازرة والمساعدة بين الأخوة ليكمل شكواه من المرض، ثمّ أتت الفاجعة كالصاعقة لتُطيح بأوراق ما بقي من كيان أخيه، وترميها في سلة المهملات ليعيد هو تدويرها كما يرغب إلى جاد مستنسخاً يضمن منه كل الإفادة، حيث طلب جواد من أخيه أن يدخل قاعة الفحص وينهي أسئلة الامتحان بدلًا عنه...

رفض جاد في بادئ الأمر قائلًا لأخيه جواد: هذا الذي تقوله غشاً وخداع ومجنونٌ أنا إن أطعتك.

رد عيه جواد: المرض سيقضي عليّ يا أخي... وأنت حتماً لا تريدني أن أرسب من أجله.

قاطعه جاد بغضب وهو يقول له: مستحيل.

لكن طيبة قلب جاد وحبّه لشقيقه جعله يرضخ لما طلبه منه دون أن يُهدده بلقاءات آيات المتكررة هذه المرّة، فقام بتسليم أوراقه إلى المراقب بعد انتهائه من تقديم الامتحان ثمّ توّجه بحذر دون أن يراه أحد إلى دورة المياه، وقبع هناك ينتظر أخيه المتمارض...!

تختلف قراراتنا باختلاف الأشخاص التي تدور حولنا

فكلما اقتربت الدائرة من المركز كانت أكثر تأثيراً عليها.

بقي من الوقت ثلاثة أرباع الساعة لينتهي الامتحان، وجواد يتعرق ويعتصر من نصف ساعة شاكياً للمراقب من مغصٍ شديد وأنه بحاجة ماسّة للذهاب إلى دورة المياه، وما يزال يملك الكثير كي يكتبه على ورقة الامتحان لكن بعد أن يُفرغ ما في أمعائه....

توسل إلى المراقب كثيراً كي لا يقضي على سنته الدراسية من أجل رحلة قصيرة تنتهي سريعاً.

رضخ المراقب أخيراً إلى طلبه طالباً من أستاذ الرياضة البدنية مرافقته في مشواره ذهاباً وإياباً... دخلا دورة المياه والأستاذ ينادي: هل من أحد هنا؟

جاد قابعٌ في الحجرة الأخيرة، يكتم أنفاسه مرتجفاً خائف من كشف أمرهما.... بدأ الأستاذ بدفع الأبواب ليتأكد من خلوّ المكان منادياً: هل يوجد أحد هنا؟ لا أحد يجيب.

قاطعه جواد عند الباب الأخير متوسلاً:

أسرع أستاذ لقد أوشكتْ على النزول.

كاد الباب أن يصطدم بجاد، إلا أن الأستاذ استدار خارجاً قائلًا له:

سأنتظرك في الخارج، لا تتأخر لم يبقَ إلا القليل من الوقت لنهاية الامتحان...

مرّت خمسة دقائق... ثمّ خرج جاد بعد أن بدّل ملابسه مع جواد في الداخل، وأسرع يركض إلى قاعة امتحان أخيه ليُكمل له ما بدأ فيه بأقصى كتابة حتى يتخطى معدل رسوب المادة... بينما عاد جواد إلى المنزل مباشرةً كي يتحاشى الوقوف مع أصدقائهما متسائلين عن الإجابات الصحيحة لأسئلة الامتحان فتُكشف خطته على أنه جواد الكسول وليس جاد المجتهد.

قضى بقية يومهما صامتين عمّا بَدَر لكل منهما من تصرفات، ثمّ ما لَبُث أن قاما وَاحتفلا بنهاية الامتحان عند دكان أبو خليل بعدما ركنا تلك الحادثة في موقف خاص بينهما مع باقي الأحداث التي تجمعهما معاً.

سير بعض العلاقات ليس لها تفسير مقنع سوى أن أصحابها يعرفون كيف يحمونها من الوصول إلى طريقٍ مسدود...

بعد شهرين ظهرت النتائج معلنةً نجاح كليهما، جاد تخطى معدل نجاحه السادسة والتسعين بالمئة كما أراد وجواد لم يتجاوز معدله الواحد والستين، المهم أنه نجح كما خطط.

شكر جواد أخاه مُعبراً له كالعادة عن امتنانه بهدية تليق بالعلاقة التي تربط بينهما بزجاجة عطر أصلية ماركة لاكوست...

ابتسم جاد بعد قبوله زجاجة العطر المكررة في كل مغامرة، والتي تكون من ذات الماركة في كل مرّة، فهو يعلم أن توأمه لا يستثني الرائحة التي تجمعهما سَوية فَيخلط الجميع بينهما... فما يعودوا يُميزون أحدهما عن الآخر.

فرحت العائلة بنجاحهما وأقام والدهما حفلاً مفتوحاً لتلك المناسبة دعا إليه جميع الطبقات والطوائف.... ارتدى الاخوان نفس الثياب في الحفل، كان جواد قد اشتراها من حلب سابقاً... بنطلونين أسودين مع قميصين

أبيضين حتى ذات شكل الحذاء ولونه... قاصداً أن يكونا شخصاً واحد لا يفرّق الناس بينهما، وجاد لم يُعارض فكرته متقبلاً إياها بكل سرور.

تابعا حياتهما على ذاك المنوال، اثنان في شخص واحد... فقد استسلم جاد لمفاجآت أخيه وأصبح يتقبّلها بشغف... إحداها حين طلب منه أن يسافر إلى جرابلس ليتم صفقة بيع السجائر والشاي مع المهرّب التركي لعدم استطاعته ذلك بسبب موعد طارئ حصل معه، وأخرى عندما انضم إلى أصدقاء جواد في تحدٍ في لعب كرة القدم مع الفريق المنافس لهم من مدرسة أخرى لانشغال جواد بعمله مما سبب تأخيره.

التواصل بين الأخوين أصبح أسهل بعد استخدام الجوال، وقد أمسى جاد يترقب الإثارة من أخيه كلما شعر بالملل في حياته المثالية ليُفرغ كل طاقته الجنونية المكتومة فيها، أمّا جواد فهو يُتقن ببراعة شخصية أخيه كلما رغب بسماع عبارات المدح والثناء من الآخرين... فذات مرة رافق والده في استقبال الحجيج العائدين من موسم الحج على أنه جاد بناءً على اتفاق بينهما حيث إن جاد لم يكن في مزاج يسمح له احتواء الضجيج لتلك المناسبة.

مضت السنوات مع كليهما بذات الوتيرة من مدّ وجزرٍ إلى أن صدرت نتائج امتحان المرحلة الثانوية لتأتي بنجاح كليهما بفارقٍ بسيط من العلامات، نعم! فارق بسيط.... رست بهما بدخول كلية الحقوق كما أتت

عليهما رياح نتائج المفاضلة... فقد جاء القدر لهما بثوب واحد يلبسونه هما الاثنين... هذا وإن دلّ دلَّ إلى مدى التجانس الذي حلّ عليهما في معظم الأوقات.

يدرك العقل البشري السليم قيمة الحياة في الظواهر الطبيعية التي تحدث حوله، فيسلك طرقاً في تصرفاته تكون مبنية على التجارب السابقة التي برْهنت صحة مفعولها... وَيتقاعس عن القيام بتجارب أخرى قد تكون أفضل إذا توافدت عليه أحداث جديدة.

اِنتقل التوأم جاد وجواد إلى مدينة حلب وسكنا في شقةٍ مأجورة قريبة من الجامعة، شخصيتهما التي تملك جميع المواصفات والطباع جعلتهما يدخلان حياة جديدة فيها مختلف الألوان من الأصدقاء فكان منهم الصالح والطالح من جميع طبقات المجتمع الطلابي.

كانا يشعران بالمتعة كلما قاما بالمقالب مع أصدقائهما، وكلما تبادلا بِطاقتهما الشخصية بشكل طبيعي إذا لزم ذلك الأمر... مثالٌ عنها عندما كان يذهب أحدهما إلى المصرف حاملاً بطاقة الآخر كي يسحب مبلغاً من المال عنه بعد تقليد إمضائه المتعارف... أو كأن يستعملان شهادة سوق واحدة لكليهما في قيادة السيارة الصغيرة التي بحوزتهما إلى أن أخرج الثاني واحدة خاصة به... عاشا أروع أربعة سنين في حياتهما،

التصقا مع بعضهما حد الامتزاج في بوتقة واحدة مُشكلان بذلك كتلةً واحدة موزعة على جسدين.

انتهى جاد من دراسته الجامعية متخرجاً منها بتقدير مقبول، فيصبح لا بدّ من الالتحاق بالخدمة العسكرية.

أما جواد مازال في الكلية يجاهد كل عام دراسي بعامين كي ينجح.....

قام جاد بتسليم بطاقته الشخصية إلى شعبة التجنيد ليعطوه بدلاً منها بطاقة عسكرية وورقة عليها مهمة للالتحاق بقطعته المفروز لها خلال مدة أقصاها أسبوع.

في تلك المدة أُقيم حفل خطوبته على آيات بعد عقد القران بشكل رسمي، وَاتفقت العائلتان على أن يتم حفل الزفاف بعد انتهائه من الخدمة الإلزامية.

جلس الأخّان وحيدين في آخر ليلة لهما يعرضان شريط ذَاكرتهما في الحياة ويضحكان على كل ما مرّ معهما... فجأة هدأ كليهما لبرهة ساد الصمت عليها، لكنهما في الحقيقة كانا يَقومان بالتخاطر بالأفكار بينهما ليقرأ كل منها ما يدور في رأس الآخر، ثم بدأ جواد بالتحدث بهمسٍ خافت: أخي، ما رأيك أن.....

ردّ عليه جاد بسرعة كأنه يخشى سماع ما سيقوله أخاه: كلا لا تكمل لن أوافق.

تابع جواد بهدوء قائلًا:

اسمعني لبرهة وفكّر جيداً في الذي سأقوله لك... أذهب بدلاً عنك إلى الخدمة العسكرية لأني والله يا أخي أشعر بأني سأبقى أربعة سنوات إضافية في الكلية كيّ أتخرج منها، فأنا ما عدت توّاقاً لفتح كتاب... بينما أنت ستكون قد أنهيتها بسهولة خلال السنتين المقبلتين مقابل أن أقوم بتخليصك من خدمة العلم.

سأله جاد مستفسرًا:

وماذا عنك؟ سيكون عليك القيام بخدمة العلم مرة ثانية عندما تعود منها!

ردّ عليه جواد:

وإن يكن! ربما لا... فأنا أفكر بعدها بالسفر إلى حيث أحلم، حينها لكل حادث حديث ولكل أمرٍ قضاء.

وافق جاد على اقتراح جواد، في نفسه حاجة يريد أن يقضيها كما كانت حاجة في نفس يعقوب في قوله تعالى في الآية الكريمة سورة يوسف:

"وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ" صدق الله العظيم.

ففي هذه الآية نصح يعقوب عليه السلام أبناءه بعدم الدخول من باب واحد عندما يصلون مصر، بل من أبواب متفرقة... وهذه النصيحة

لحكمة وحاجة كانت في نفسه عليه السلام، وهي الطمأنينة على أبنائه والشفقة عليهم... ولأنهم كانوا ذوي جمال وهيئة حسنة ومنظر وبهاء... بالإضافة إلى أن دخولهم من باب واحد فيه نوع من الاجتماع فخشي عليهم أن يصيبهم الناس بعيونهم فإن لِلعين حق.

أما جاد فكانت حاجة نفسه أن يبقى قريباً من خطيبته آيات ليُجهز على وسوسة الشيطان في شكوكه اتجاه مشاعرها نحو أخيه، فقد أنهكته الأسئلة التي تُلاحقه باحثة عن إجابات يعلم حقاً أين يجدها وكيف...

لذلك أراد أن ينهي تلك المطاردة، بأن يغيب ظاهرياً عن الساحة لفترة وجيزة حتى يتسنى له مراقبة تصرفاتها من قريب وهو غائب، فهو غالباً ما وقع في الشك سائلاً نفسه: هل من الممكن أن تكون تلك حقيقة؟ فَحضورها الساحر يصنع في روحه المعجزات ولا يعلم إن كان ذاك خيراً له أم شر! فلا بأس إن خرج من نفسه قليلاً ورآها من الخارج ليعرف عنها أكثر وليتأكد بذلك عمّا يدور حوله.

صبيحة اليوم التالي بَدأا يومهما على أن كل منهما الآخر، فسافر جواد على أنه جاد إلى قطعته العسكرية في ريف دمشق، بينما جاد تابع دراسة جواد الجامعية كما اتفقا، وفي فترة تبادلهما الشخصيات يحمل جاد جوّال أخيه بالإضافة إلى جوّاله.

بينما جواد سيحمل جوالاً آخر ذو رقم جديد لا يعرف به سوى أخيه جاد ويعود في فترة الإجازة إلى استعمال جوّاله القديم الذي يحمله أخاه بغيابه.

كل شيء محبوك ومدروس بحيث لا يُشك في اللعبة أو ينكشف أمرهما، معاهدين بعضهما أن تبقى تلك الخدعة سراً في حياتهما، ولن يبوحا بها لأي كائنٍ كان... حتى آيات لن تعلم بتلك الاتفاقية التي جرت بينهما.

مضى أول عام من خطتهما، وقد بقي عامٌ آخر على تخرج جاد من الجامعة الذي هو جواد في الحقيقة وإنهاء جواد الخدمة الإلزامية الذي هو جاد....

وخلال هذا العام حصل ما لم يكن في الحسبان، عندما نزل جواد إلى مدينته إجازة مرتدياً بزّته العسكرية، وفي يده جعبة صغيرة حيث التقى آيات مصادفةً في الزقاق نفسه الكائن خلف المدرسة حين كانت ذاهبة إلى عملها الجديد لدى رياض الأطفال.

وقفت آيات تنظر إلى جواد يتقدم نحوها، وهي تظن أنه خطيبها جاد... نظرت يميناً ويساراً ثم استدارت إلى الخلف لتتأكد أن الطريق خال من النظرات فهرولت إليه مسرعة لتضمّه بشدة، قائلة له: جاد! لقد اشتقت لك، مضت مدّة طويلة ولم أراك فيها...

وقبل أن تحاول زرع قبلة على خدّه، أمسك جواد ذراعيها وَأنزلهما بقسوة ليبتعد عنها مسرعاً دون أن ينطق ببنت شفة تاركاً إياها في حالة دهشة الموقف الذي وقفا عنده.

علم جاد بما حدث عندما تلقى رسالة نصية من خطيبته معاتبةً إياه فيها بما فعل تسأله عن سبب البرود الذي تلقته منه بعد غياب وبأنها لم تشعر باللهفة منه مهددة بالانفصال...!

استشاط جاد غضباً من خطيبته ومن أخيه ومن نفسه أولاً التي أوقعته في فوهة اللوم لبركان ثائر اسمه الندم، لم يشأ الرد عليها قبل أن يسمع من أخيه ما جرى... فقام بالاتصال على رقمه السرّي يسأله:

جواد هل أنت في منبج؟

ردّ جواد على سؤاله قائلًا:

نعم أخي، لقد نقلوني إلى قطعة جديدة، وقد أخذت إجازة لأقوم بزيارتكم قبل أن ألتحق بها.

قاطعه جاد: وماذا أيضاً؟

ردّ جواد: كانت آيات أول ما صادفت.

روى جواد لأخيه ما حدث متأسفاً له عمّا حصل...

طلب جاد من أخيه جواد صورة مباشرة له بشكل فوري.

استغرب جواد من طلب أخيه، وأرسل له صورة عبر الجوال.

استلم جاد الصورة ثم همّ إلى أقرب حلاق ليهذّب شعره كما في الصورة المرسلة... ثمّ عاد منبج بعد العصر والتقى أخيه معتذراً منه عمّا حدث.

ردّ عليه جاد: لا عليك، علينا إكمال ما بدأنا به... فقد شارفنا على قطع منتصف الطريق ولا بدّ من المضي قُدماً لننتهي من تلك الخدعة التي أدخلنا أنفسنا فيها.

الوقوف والنظر إلى الخلف لا يعني قياس كم قطعنا من مسافة وإنما إحصاء عدد المرات التي تعثرنا فيها أثناء المسير كي نتابع بشكل أقوى وأسلم.

ذهب جاد إلى بيت حماه كي يبرر لخطيبته سبب جفائه حين صادفته صباحاً بأنه كان يريد أن تلقاه بعد غياب بصورة حسنة المظهر

والهندام، ثمّ فاجأها بهدية جعل منها عربوناً للصلح واتفق معها على كلمة سر تجمعهما إذا ما التقيا مع بعضهما مصادفة مرة أخرى لتكون بمثابة شيفرة لا يعلم بها أحد.

فقال لها: تقولين أولاً الشمس تسطع كل يوم.

لأرد عليكِ: من عينيكِ يبدأ النهار.

وافقت آيات على الشيفرة وسألته قائلة:

ومتى ستنتهي من الخدمة العسكرية لنتزوج.

أجابها: ربما ستة شهور أو ثمانية.

فقالت له بشوق: يعرف الوقت كيف يسترد قيمته تماماً عندما أَكون بانتظارك... وأنا تعبت جداً من الانتظار وقد شارف الصبر على الإفلاس.

مرّت فترة الزيارة سريعاً وعاد كل منهما إلى مكان الآخر، فذهب جواد إلى قطعته الجديدة في ضواحي مدينة حماة، ورجع جاد إلى الجامعة ليتابع تقديم ما تبقى من الامتحان النهائي للسنة الأخيرة.

وخلال العام الثاني من اللعبة أقدمت مجموعة من المعارضين للحكم بقدح شرارة الاضطرابات في جنوب سورية، وسرعان ما انتقل لسان النار إلى وسطها، فانقسم الشعب ما بين مؤيدٍ ومعارض وعمّت الفوضى في أنحاء البلد ثمّ ظهرت الانشقاقات بين صفوفها، مما أدى إلى تزعزعٍ في الشؤون السياسية للدولة.

كما ظهر موقف باقي الدول العربية في تعاضدهم بقرار إقصاء سورية عن الجامعة العربية، هذا العمل الوحيد الذي تمكنّوا من فعله نحو البلد التي أوت مختلف الشعوب على مرّ الحروب والأزمات دون مقابل... فقطع اليد عند مدّها أسهل بكثير من الإمساك بها وإخراجها من فم الدوامة التي علقت بها...

بالإضافة إلى وسائل الإعلام الخارجية التي لعبت دوراً سيئاً في نقل الأخبار إلى أنحاء العالم... على إثرها حاولت معظم الدول الغربية منها

وبعض الدول الشرقية التدخل في حلّ النزاع لكن الأمر أكبر من ذلك، فقد تحولت القضية إلى مؤامرة كونية عبر حشد أضخم عدد من المجموعات الإرهابية داخل سوريا لجعل أرضها ساحة قتال في مجرّة منعزلة عن درب التبانة.

وفق تلك الأجواء تخرّج جاد للمرة الثانية من كلية الحقوق لكن باسم جواد بتقدير مقبول أيضاً، من ثمّ جلس يترقب تسريح جواد من الخدمة العسكرية ويعدّ الأيام كي يعود كل منهما إلى ذاته...

لكن جواد طال تسريحه لأن البلد في وضع حرب وهي بحاجة إلى كل عنصر من عناصرها في تلك المرحلة... كونهم يملكون الخبرة اللازمة للدفاع عن الوطن، ولأن أعداد كبيرة من الشباب المكلّفين للخدمة العسكرية هاجرت إلى المجهول لظروفٍ قاهرة أو لحالات قسرية... مما اضطر من وزارة الدفاع أن تعلن بالاحتفاظ بما لديها من مجندين وضباط، فمثل هذه الإجراءات تكون عادية في جميع دول العالم تحت ظل تلك الأجواء.

دخل جاد في صراعٍ قوي مع عقارب الساعة، لاعناً الدقيقة التي وافق فيها على جنون أخيه بمشاركته اللعبة الخطيرة.... فَخطيبته ما تنفك تسأل عليه منتظرة بشغف رجوعه ليتم الزفاف، وهو لا يتجرأ على نقض المعاهدة التي أجراها مع أخيه... فكان في كل شوق يؤجل قول

الحقيقة إلى شوقٍ آخر، علّ وعسى أن تنتهي الحرب ليعود جواد فتعود معه كل الأشياء.

طريق الحلم يبدأ بغفوة والخروج منه صدمة.

في بداية العام الرابع للعبة بدأ جاد بتخليص هواجسه من الشكوك التي لاحقته سابقاً تجاه مشاعر آيات... لكن النهاية أتت على قدميها معلنةً بحرب داخلية روحانية لا سلام فيها إلا بشقّ الأنفس حين وقف جاد متفاجئاً عندما فتح باب دارهم في منبج أمام ضابط برتبة ملازم برفقة عنصرين من الجيش السوري.

قال جاد في سرّه خائفًا:

ويلاه؟! قد حقتّ الساعة التي أخشاها.

سأله الضابط وهو في حالة ذهول:

هل هنا منزل الضابط الملازم مصطفى جاد بن محمد ربيع الحسن؟ أنت جواد شقيقه التوأم بالتأكيد!

ردّ عليه جاد بحذر: نعم، أنا هو شقيقه.

عرّف الشاب عن نفسه قائلًا:

وأنا الملازم حاتم صديقه من مدينة إدلب... متابعاً بصوت هادئ:

"وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ". صدق الله العظيم...

يُشرفني أن أنقل لكم خبر استشهاد الملازم مصطفى جاد في معركة جرت قبل أسبوع في ضواحي محافظة اللاذقية، وسيصل جثمانه مدينة منبج بعد يومين، ولقد كلّفني قُبيل وفاته برسالة شفهية أنقلها لك حصرًا، مفادها...

"اسمع نبض قلبك

هو سيدلك على الطريق الصحيح

ولتكنْ كما تريد فأنت حر."

(3)

الحوم حول هوة الخطأ

يقودك إلى الوقوع فيها

ذهبت مسرعاً إلى بيتنا في شارع النيل، بعدما أوكلت الممرضة أن تعتني بطفلتي إلى حين عودتي إليها... وصلت في حالةٍ لا أُحسد عليها، الرعشة سيطرت على حواسي فما عدت قادراً على التركيز...

أمواج من الجموع ترتطم بي وأنا غير مبالٍ بالذي يحدث، فما حدث قام بإغراقي إلى عمق الصدمة.

وقفت مُتأملاً للمبنى الذي تهدم جرّاء هبوط القذائف عليه بعينين شاخصتين، كانت واجهة البناء منهارة بالكامل، ولا وجود للشرفات مما جعل غرف الجلوس مفتوحةً للملأ، فَكشفت ذكريات أصحابها لتجمعها في لقطةٍ واحدة لن تُنسى، أما أهالي المنطقة فما زالوا يبحثون عن المفقودين تحت الأنقاض بمساعدة فريقيّ الدفاع المدني والهلال الأحمر.

اقتربت أسأل سكان المنطقة وجماعة الإنقاذ عن زوجتي، امرأة عشرينية كانت تحتضن ابنتها لحظة عثورهم عليها...

أخبروني أنهم وجدوها في حالة إغماء وهي تحمي ابنتها من سقوط الأحجار عليهما، ولا يعلمون ما الحالة التي آلت إليها بعدما قاموا بنقلها في سيارة الإسعاف.

توجهتُ مسرعاً إلى المشفى الجامعي باحثاً عنها، وهناك أخبروني بعدم وفود أي حالات إليهم عن يوم الأمس من منطقة شارع النيل، فعدتُ أدراجي قاصداً مستشفى الرازي الحكومي سائلاً صديقٍ لي يعمل طبيباً في قسم الإسعاف.

فأجابني بأسف قائلًا:

نعم، لقد أتوا لنا بالأمس بمجموعة من المصابين، كان فيهم الجريح ومنهم من أدركه الموت

سألته: وهل كان بينهم امرأة عشرينية؟

ردّ عليّ: أظنّ نعم قد كان.

أكدت عليه الإجابة قائلًا له: نعم أم لا!

أجابني بحزم: كان هناك امرأة وصلت جثةٌ هامدة، لكن لم أميّز عمرها فقد غطى الغبار ملامحها وظهرها مكسور كذلك ساعدها و.....

قلت له برجاء: دعني ألقي عليها نظرة.

نزلنا معًا إلى قبو المشفى ومنه دلفنا إلى غرفة حفظ الموتى، كان هناك أكوامًا من الجثث تنتظر أقربائها ليتعرفوا عليها، حسبنا الله ونعم

الوكيل، إنها هي زوجتي عرفتها على الفور بالرغم من محاولات الحرب لتشويهها.

وقفت منتصف غرفة حافظات الجثث وطيفها يدور حولي يلقنني الوصايا في طفلة صغيرة لا ذنب لها...

رجعت إلى مشفى الأطفال معصوراً بالآلام، لا حول لي ولا قوة... حملت ابنتي حياة إلى صدري وأنا مضرجاً بالحزن على وفاة والدتها... الحمد لله ولا إله إلا هو يُحيي ويُميت وهو على كل شيء قدير، اللهم لا نسألك رد القضاء بل اللطف فيه....

لا يوجد حقيقة صادقة في الحياة مثل الموت، وحده أصدق الحقائق.

عشرات الأسئلة راحت تضرب رأسي، تريد أخذ أجوبةً لها... ماذا أقول إلى راية؟ وَهل ستسامحني؟ كيف أشرح لها؟ ومن أين أبدأ؟

أنهيت إجراءات الخروج من المشفى بعد إحضاري ورقة صك زواجي الثاني وبيان الولادة الخاص بابنتي، حيث كنت أخفيها في العيادة حتى لا يقعان تحت ناظريّ راية في الوقت الراهن إلى أن أخبرها ذلك بنفسي...

وصلت منزلنا الكائن في حيّ الشهباء قريب العصر، ورأسي يعصر أفكاري عساه يصفّي إجابات صادقة خالية من الشوائب...

استقبلتنا راية بحالة دهشة غلبها الفضول متسائلة: مَن هذه!

أجبتها: حياة.

عادت لتسألني: أيُّ حياة؟

قلت لها: الحياة التي طالما انتظرتها... والدتها توفيت بالأمس جرّاء سقوط قذائف مُعادية على المبنى القاطنين فيه، وقد نجت الطفلة من الموت.

اقتربت راية مني وأخذت تداعب حياة بهدوء، ثم أخذتها مني وضمتها إلى صدرها قائلة: ها قد أتيتِ يا حياة، هل يمكننا الاحتفاظ بها يا عزيزي؟

لا أدري ما الذي طرأ على فكري لأقول لها:

اعتبريها هدية من القدر بمناسبة عيد زواجنا الخامس.

ردت عليّ وهي تطير فرحاً وأنفاسها ترفرف كالأجنحة فوق بستانٍ من الورود: إذن عليك أن تأتي بمستلزماتها من حليب، حَافضات وملابس بديلة قبل أن يسبقك الظلام إلى بداية جديدة لها.

الحياة روايةٌ ضخمة ونحن في الواقع أبطال القصص فيها

والأيام تثبت لنا ذلك...

ومن يختبئ الآن سيظهر غداً من تلقاء مصيره

لأن الاختباء مهنة لا يمارسها سوى البارعون في الموت

أو الذين يملكون طاقية الإخفاء.

ولا أدري إن كان سيأتي فصلاً أخرج منه ممثلاً ناجحاً دون جوائز حين تظهر الحقيقة أمام راية...!

الحقيقة التي أخفيتها عن أمي أيضاً، لأني أعلم أنها ستعطيها دوراً ثانوياً في حياتي، وستقوم على إقناعي بأنها مجرد مشاهد تتكرر بشكل تلقائي في مجتمعنا كما حصل مع أبي.

نزلت الشارع أجوب بالذكريات بين محال ملابس الرضع لأشتري بعض الحاجات لابنتي حياة...

رجع بي الزمن إلى الوراء....

فبعد انتهائي من دراستي الجامعية وسنوات الاختصاص، كان عليّ أن أقوم في خدمة الريف الصحية لمدة عامين، وبحسب سحب القرعة التي حصلت آنذاك، جاء تعييني إلى المشفى الوطني في مدينة صغيرة يغلب عليها الطابع الريفي...

تلك المدينة تبعد حوالي 90 كم إلى الشمال الشرقي من حلب، كنت أسافر إليها في الصباح الباكر بواسطة الميكروباص أو بسيارتي الخاصة إن داهم الوقت ساعة الانطلاق.

غالباً تكون البدايات مثل النهايات تماماً...

صعبة إلى أن نعتاد عليها أو نتأقلم معها

حتى نحقق الاندماج التام في جميع الحالات

لِنخلط بين البداية والنهاية فلا نعد نُميز بينهما.

وبدايتي حين قررت أن أقيم في تلك المدينة طيلة أيام دوامي في المشفى بعدما مللت من السفر ذهاباً وإياباً، وبعد إقناع أمي بأن الطريق مليئة بالمخاطر التي يتعرض لها ركابها...

وبالرغم من سهولة التملص من تلك الخدمة بوسَاطة صديق العائلة، زدتُ إصراراً على تنفيذها، فقد أردتُ أن أجرّب العيش من تلقاء شخصيتي أنا دون أي تدخل من أحد... مرتدياً ما يحلو لي من ثياب والظهور بلحية طبيعية، مبتعداً بعض الشيء عن الماركات وَالبريستيج وأقنعة مجتمعنا البالي...

فأنا وحيد عائلة فلان بن فلان صاحب أكبر وكالة سيارات مستوردة في المدينة ولديه أشهر مصنع للخيوط، ومعروف من قبل الجهات التي تملك يداً في كل مكان... فكنا حديث اليوم والساعة في المجتمع الحلبي من جميع الفئات، أما في هذه المدينة الصغيرة لا أحد يعرفني من الناس...

لذا أردت أن أثبت وجودي بأن أعمل بشخصية انفرادية لا علاقة لها بعائلتي... هذا ما أردته حقاً، فقد ضجرتُ من القيود المخملية التي أثقلت روحي وجعلت مني عارض أزياء آلي لدور مشهورة يتحرك بجهاز تحكّم عن بُعد.

مَن يقف أمام المرآة ليس أنت...

بل ما يرغب الآخرون برؤيته

لكن عندما تريد أن ترى نفسك على حقيقتها

عليك أن تتجرد من جميع القيود.

عشتُ الحرية في تلك السنتين من عمري، فعلت بها ما يحلو لي ... لبست الثوب العربي الذي تكرهه أمي، جرّبت التدخين وَالنارجيلة، وتعلمت اللعب بورق الشدّة، وصرت أسهر في المقاهي الشعبية، لم آكل تشيز كيك وأشرب الكابتشينو مجاملة أو إكراهاً كما فعلت مسبقاً... كنت أجلس في المجالس العربية على الأرض، واستعمل يدي في أكل المنسف والفريك، وقمت أيضاً برحلات صيد السمك من نهر الفرات ومطاردة الضباع في المزارع لقتلها وصيد الأرانب البرية، نمت في العراء ملتحفاً السماء ومفترشاً الأرض...

لم أشعر أني غريب بين أهالي المنطقة ولا هم أيقظوا الوحدة النائمة التي نشعر بها عندما نكون بعيدين عن الأهل.

خلال أسبوع واحد كنت معروفاً من قِبَل وجهاء المدينة ومحبوباً من جيل الشباب، وذاك الطبيب الذي تُهدد به أمهات البلدة أطفالها المشاغبين بأنه يملك حقيبة مليئة بأنواع الإبر، حيث يرميها كالسهم الطائر من أي مسافة كانت، بمجرد مخابرة تلفونية منهنّ.

استأجرت دار صغيرة مؤلفة من غرفة نوم وصالة قرب المشفى، صاحبها رجل يُلقب بأبي عبد الله من عائلة شركسية الأصل، يملك دكاناً تجارياً لبيع المعاطف النسائية في السوق المغطى القديم، يقطن في الطابق العلوي فوق داري الذي يفصل بيننا درج داخلي مع عائلته المؤلفة من والدته العجوز وزوجته التي تعمل موظفة في مركز البريد ولديهم ثلاث فتيات من أعمار مختلفة، أكبرهنّ كانت في بداية عملها آنسة في رياض الأطفال التابعة للاتحاد النسائي.

جميعهنّ يملكنّ الجمال القوقازي المُبهر من نقاوة البشرة والأنف الدقيق، حتى والدتهنّ التي تخطت الأربعين ما زالت تُنافس بناتها في الجمال متربعة عليهن بعينين لهما زرقة ساحرة...

لكن بعد حين اكتشفت من حماتها العجوز في جلسة ثرثرة أن الكنّة ذات جذور كُردية، ربطت بينها وبين ابنها علاقة حب قوية تحديا بها العادات والتقاليد ضاربين بها عرض الحائط بزواجهما، وقد أُقيمت وقتها حفلة زفاف كبيرة حضرها جميع أهل المدينة والشركس المقيمين فيها مُعبرين عن قوة اللُحمة بين سكان المنطقة مهما كان الاختلاف العرقي أو الطائفي...

قد تخذلك العين فتتعثر من أول مطب

أما إن أردت المتابعة، فما عليك إلا بباقي الحواس.

اشتدت أواصر الألفة مع عائلة أبي عبد الله بعد مرض الجدّة، فقد كنت أطمئن عليها كل ليلة تقريباً لأراقب علاجها كواجبي الإنساني أولاً، ولأرد بعض من جميلهم عليّ ثانياً، فهم كانوا لي بمثابة عائلتي الثانية... كنت أعود من عملي أرى الشقة نظيفة، والطعام جاهزاً على الطاولة مغطى بقطعة قماش مطرزة بأناقة، والثياب مرتبة في مكانها، فقد كانوا يملكون مفتاحاً لشقتي، يدلفون إليها متى أرادوا ذلك وأنا لم أمانع طالما لا يوجد أسراراً أخبئها عليهم.

أكثر ما كان يقلقني تعلق الفتيات بيّ، فكل واحدة تراني بما تريد فالكبيرة بينهن تراني صديقاً لتبوح له بمشاكلها طامعةً بحلول تُرضيها، والوسطى تراني فارس أحلامها الذي أتى بسيارته البيضاء ليعود بها إلى المدينة فتحقق رغبتها بالابتعاد عن البلدة والعيش في مدينة كبيرة لمتابعة دراستها في الجامعة، أما الصغرى بينهن فهي المدللة عند الجميع أرادتني أخاها الكبير الذي تَحتمي وراءه دائماً والذي يلبي كل رَغابتها الطفولية.

سيلين الوسطى بينهن كانت في السنة الأخيرة للمرحلة الثانوية القسم العلمي، اشتكت من ضعفها في مادتي العلوم الطبيعية والكيمياء فطلبت مني مساعدتها في دروس مسائية أشرح لها ما هو غير مفهوم... كنت

أعرج عليهم مرتين في الأسبوع إلى جلسة ساعة أو ساعتين أشرح لها ما تيسر جالسين في الصالة بحضور جدّتها....

قرأت ذات مرة على زاوية كتابها أثناء وجودي معها للدرس، ما يلي:

لا تهتم إلى المسافات التي بيننا

كل ما عليك طيّها

ثمّ وضعها في جيبك الممزق

الذي تركته لك عمداً

ودعها تتسرب عبر ذاك الثقب مع مرور الزمن

سألتها: هل هذه كلماتك يا سيلين!

فأجابتني بنعم

قلت لها حينها: لمَ كتبتها هنا على صفحة من الكتاب؟

ردت: الكتاب وسيلة لأصل إلى حيث أريد، ثم تابعت:

صحيح أن الصمت صديقٌ مخلص، لكن الكتابة تبقى وشاة حسناء.

لقد وصلت الرسالة لكني تغابيت حينها، وسألتها:

مادام لديك ميول أدبية، لمَ اخترت إذن الفرع العلمي؟

فكان ردها:

عليك أن تحلم بالحصول على الشمس كي تظفر بالقمر.

في الحقيقة لم أفهم وقتها ما قصدت بالتحديد...

عدت إلى حاضري مع رنين جَوالي على نغمة how i love you

هذه راية تستعجل مجيئي قائلة:

حياة تبكي جائعة، لا تتأخر رجاءً.

قلت لها: حسناً أنا في الطريق.

أدركت من حينها أن لسيلين مآرب أبعد من الدراسة، فهي تحلم بالخروج من تحت قبّة الريف الهادئة والانخراط في ضوضاء المدينة الصاخبة... كانت كالعصفور الذي يريد أن يتعلم الطيران داخل قفص! فهي ما زالت صغيرة، لكن رغبتها في أن تُبهرني جعلت من نفسها أن تبدو أكبر من خلال فلسفتها عن الحياة واصفةً إياها بأنها مدرسة تنجح في تجربة وترسب في أخرى، ولا مانع لديها بإعادة المحاولة حتى تحقق حلمها كونها مندفعة جداً وحالمة إلى أبعد حدود التغيير... فهي على حد علمها تعرف أين تضع قدمها لتجتاز حفر اليأس بعد أن تردم الفشل فيها كي تتابع طريقها إلى النجاح.

كانت تسألني كثيراً عن أسلوب الحياة في حلب وكيفية العيش فيها، والأماكن المشهورة من مطاعم ومراكز تسوق، وعن القلعة والمناطق المحيطة بها والمقاهي التي تجاورها.

أما أنا فكنت أتحاشى نظراتها الواضحة التي تخبرني أنها تنتظر مني بادرة تُطفئ لهيب كبريائها الأنثوي، كنت أتغابى في فهم ما تريد حتى لا أدخل في دوامة لست مستعدًا لخوضها....

في بعض الرحلات لا بد من وجود محطات اسمها تغابي

حتى نرتاح من عناء ما قطعناه من طريق.

لكن القشة التي قسمت ظهر البعير عندما فتحت كتاب العلوم الطبيعية قُبيل امتحان البكالوريا بأيام لأذاكر لها المنهاج، فوقعت عيني في زاوية الورقة على رسمة قلب كُتب فيه اسمينا وتحته تاريخ آتٍ لشهر آب (أغسطس) سألتها بلهجة قاسية: ما تلك المناسبة يا سيلين؟

ردت عليّ: هو تاريخ إعلان خطوبتنا، سنفرح فرحتين...

واحدة لارتباطنا والثانية لِنجاحي وقبولي في جامعة حلب.

علقت على كلامها: أي جنونٍ هذا!

طمست اسمي وتركت اسمها معلقاً بالأرقام... قائلاً لها:

كي تحققي أحلامك عليك أن تستيقظي أولاً، فإن كنتِ تريدين دخول الجامعة عليك بالاجتهاد لها وخاصة بعد ارتفاع علامات مفاضلة القبول، ولأنك ترغبين بالانتقال إلى حلب عليك بمبرر قوي كي تحصلين على موافقة أهلك للعيش فيها، أما إن تابعتي رسم القلوب على الأوراق فلن تحصلين إلا على فارس أوهامك.

ثم تابعت قائلًا لها: نصيحة من أخيكِ الكبير انتبهي إلى مذاكرتك، لإن الامتحان على الأبواب ومن باب أولى أن تستقبليه بما يليق به من تحضير ومثابرة.

قمت مسرعاً إلى داري وكلمة مغرور تُقذف من فوهة فمها بشكل متوال رافقتني وأنا خارج، لم أعد من حينها أصعد إلى دارهم إلا بوجود أبي عبد الله وعلى ظروف قاهرة أيضاً.

من بعدها أمسيت أعود إلى شقتي أرى كل شيء كما تركته صباحاً، فأيقنت أن الاهتمام الذي أحاطني سابقاً كان من تنفيذ سيلين، وأن مسألة الدروس الخصوصية من تخطيط الجدّة التي شجعتها على ذلك.

بعض المسائل المعقدة لا يلزمها سوى الوقت لحلها.

انقضت مدة خدمة الريف وكان لا بدّ من العودة إلى حلب، هممت أجمع أغراضي لأركب الطريق في صباح اليوم التالي... إلا أني قبل الرحيل تفاجأت بأبي عبد الله يلح عليّ بحضور حفلة عقد قران ابنته الكبرى في ساحة البلدة بحضور كافة الأهالي! وأخبرني أنه سيتم حفل الزفاف بعد عودة خطيبها من الخدمة الإلزامية كما تمّ الاتفاق بين العائلتين.

اغتنمت قبول الدعوة كي أقوم بتقديم الشكر للجميع على حسن ضيافتهم، فالناس هنا طيبون للغاية ولا يأبون تقديم أي مساعدة.

استلمت طريق السفر إلى حلب بعدما ودّعت الجميع، بينما أخذ بالي منعطفاً آخر يستذكر فيه ما دار من حوار بيني وبين آيات قبل عقد قرانها....

سألتني حينها: أيمكن أن يحب المرء اثنين معاً؟

سألتها مستفسرًا: ماذا تقصدين...؟!

أجابت: كلما رأيت أحدهما أشعر بنبضي يسافر إلى الآخر.

وقتها تفاجأت مما قالت فبلعت ريقي بصعوبة، لقد سدت تفاحة آدم كل المسالك... لبرهة ساورني احتمال أني واحد منهما، سألتها بقلق:

كيف ذلك؟

ردت: أصارحك القول بأني غير متأكدة من شعوري اتجاه كل منهما فأنا غير قادرة على الجزم مَن الذي أحبه! هما من الخارج واحد أما من الداخل مختلفين...

قطعت خيط احتمالي الوحيد، فقد عرفت مَن يكونا... قائلاً لها:

عليك بالابتعاد عن كلاهما.

ثم تابعت قائلة:

لا مكان للقرار الصائب في اجتماع خيارين والحيرة ثالثهما

إنه لأكبر الأخطاء أن نختار أحدهما

ونترك الآخر معلقاً على أبواب التمني

فإن (لو) تفتح أقفالاً مؤصدة أمام الشيطان.

رنين الجوال يعلو مرة أخرى على نغمة How i love you فقطع حبل الذكريات... إنها راية

أجبتها على الفور: حسناً عزيزتي، لقد وصلت افتحي لي الباب.

قامت راية بنفض غبار الموت عن ابنتي حياة، وتنظيفها من آثار القصف الذي حرمها من والدتها...

شعرها الذهبي الناعم يحكي قصص الطفولة المشمسة التي هجرتها الإنسانية في أقبية النسيان، وعيناها بحرٌ تخطهُ أمواجٌ حلقية الزرقة لتحكي كل واحدة منها قصة... فالأولى يتمسك الأمان بها كطوق نجاة تعب من حمل صاحبها إلى المجهول، أما الثانية فهي حبال تشدّ الراء من الحرب ليعود الحب دونها كما كان... بينما فمها زورق وردّي طائر في سماء لا حدود لها للحزن، ومع ذلك تبتسم للأمل الذي يعرج أمامها بقدمٍ مكسور.

رمتني راية بنظرات أوشكت أن توقع بي، ما لبثتْ أن لملمتها قائلة وكأنها تراني للمرة الأولى: كم تشبهك...! لكن بألوان مختلفة.

سألتها: هل أحببتها؟

دموعها المنهمرة كانت كفيلة لصنع عقداً من السعادة يحيط ابتسامتها التي باتت منهكة من حرمان الأمومة.

ردت على سؤالي: أعدك أني سأكون أماً لها، تحزن لألمها وتفرح إلى فرحها وتدعو لها بالخير... فلقد انتظرتها طويلاً بطول شوقي لها.

نامت حياة في سريرها الجديد المُهيأ لها منذ خمسة سنوات، وراية جالسة بجانبها تمسك يدها الصغيرة كي تسحبها إلى شاطئ الحنان...

تابع نزيف الذكريات تدفقه في خاطري بينما رحتُ مستلقياً على أريكة غرفة الجلوس بعد عناء قلبي من حمل الحزن الذي أثقل حركته.

الموت في الحرب لا يحمل تأشيرة عبور

كَونه يرحل سريعاً كما أتى

ولا وقت لسؤاله كيف؟ ولماذا؟

نكتفي بقولنا حسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله لنتعايش مع الوضع الآني برباطة جأشٍ، ونتابع العيش في اليوم التالي... هذا لأن الموت من أول الحقوق التي نتمتع بها حالياً في تلك المدينة.

عاد صوت آيات يطرق نافذة ذاكرتي عندما قالت لي:

سأحاول أن أعمل بقولك لكني لن أعدك بذلك فمنذ طفولتي تفتحت براعم القلب على أنغام نبض أحدهما وما لبث أن أثمر على النبض الآخر.

لبّ الخطأ حين نحب اثنين معاً

والخطيئة هي أن نتذوق حلاوة ذاك الحب بشغف

على أنه عسل بينما هو سكر مجبولٌ بالخل.

فأنا لم أر غيرهما في عالمي، يتأرجحان في ميزان اختياري ولا مجال لهبوط كفة إحداهما لتعلو الأخرى.

يومها نصحتها قائلًا:

أنتِ تسيرين نحو رحى الحب الطاحنة وفي غفلةٍ ما ستقومين في سحق قلبك وعقلك معاً هناك... حينها لن تستطيعي التراجع، أرجو لك أن تلتقي حينها مَن ينقذك من تلك الكارثة.

أجابتني بهدوء:

ما يقولون في الحب أنه عندما تحب شخصاً تصبح أعمى البصيرة، وهو ما لا تراه في بواطن العقل من صواب...

أما أن تحب اثنين معاً على ذات الدرجة فهذا جنون القلب بحيث لا يدرك أن العقل تنحى جانباً بعد محاولات ردع فاشلة.

سألتها حينها عن السبب الذي أوصلها إلى تلك النقطة، متابعًا لها:

ألم يظهر أمامك إشارات تحذرك قبل الوصول إلى وضعك هذا!

نملة واحدة كفيلة بأن تدلك على الطريق كيّ تعلمك أن هناك شيئاً ما...

وسرب من النمل يؤكد لك ذلك.

كان ردها: أتصدق أني لم أنتبه مطلقاً إلى وقوف قلبي على نبض يصل بين الاثنين، فلم أعد أذكر أيهما أحببت أولاً، نحن أصدقاء منذ الابتدائية

في ذات المدرسة بالإضافة إلى حبال الجيرة التي تربطنا مع بعض، فإما أن يكونوا عندنا أو نكون عندهم في زيارات مستمرة مما زاد من العقد التي نتجت عن تلك العلاقة...

ثمّ تابعت قائلة: في البداية أُعجبت بروح جواد المرحة فقد كان يجعلني أضحك لأتفه الأسباب إذ كان لا يحب أن يراني حزينة أبداً، ثمّ راق لي هدوء أخيه في ذكائه وتصرفاته الرزينة، لكن لم أتوقع منه أن يكون سبّاقاً في مفاجئتي بعلبة صغيرة يوم توزيع الجلاء المدرسي مع ظرف صغير... جعلني أُسرع إلى المنزل لأعرف ما تحتوي فوجدت بعد فتحها قارورة عطر برائحة الياسمين وكلمة أحبك تتوسط الورقة بخط عريض!...

الجرأة هي آخر ما توقعته من جاد فهو شخصية خجولة يختصر الكلام دائماً إلى أقصى درجاته، وقد انتهزت طيبته ووافقت أن ألقاه مراراً فقط لأكون قريبة أكثر من أخبار جواد...

كنت لا أكف عن السؤال عليه كلما كنّا معاً وكان لا يبخل بالإجابة، لكن سريعاً ما كان يغير مسار الحديث مبتعداً عنه...

ومع لقاءاتنا المتكررة كنت أقترب خطوة نحو مسار جاد متجاهلة كل الإشارات التي كانت تومض لي، إلى أن سكن قلبي بالرغم من بقاء حجرة مغلقة لجواد لا يعرف أحد بوجودها...

وهذه الحجرة مليئة بالمشاعر المتناقضة من ود مكنون له بجانب الغضب الذي طلى جدرانها بالعتم لأن طريقة تعامله أوقعتني في تلك الازدواجية في الحب.

أسلوب ممازحته لي وكلامه معي أَخبراني بأنه مهتم، فتهيأ لي بأنه يرغب بي، لم أعِ أن تلك طريقته مع الجميع إلا متأخرة بعد أن ملك القلب والروح وأصبح الداء لأحاسيسي المختلطة فظننت أن اقترابي من جاد في هذه الحالة سيكون الدواء لها.

سألتها حينها عن سبب عدم تعبيرها عن مشاعرها إلى جواد قبل اعتراف أخيه بحبه لها!

أجابتني وقتها على سؤالي: كأنك لا تعلم أننا في مجتمع إذا باحت الفتاة عن إعجابها بشخص يكون قد سمحت بمسح كرامتها في الأرض طوال العمر.

طلبت منها أن تشرح لي الأمر أكثر، فتابعت قائلة:

في هذه الحالة ستكون الفتاة مستعدة لحمل مزيداً من الضغوط دون أن تشتكي مقابل لحظة أرادت فيها أن تفضي عمّا شعرت به، سوف يتحطم كبريائها مع ركلات أقدام الحياة إلى أن يتحول إلى كتلة مشوّهة قابلة للكسر، وإن كُسر الكبرياء سيمسي مسخًا بعد عدة عمليات تجبير بغراء

الندم، حينها سوف تتمنى لو أعدمت الجرأة على فعل ما فعلت بها لتستطيع مواصلة العيش في تلك الدائرة الضيقة التي صنعتها لنفسها.

وكما أخبرتني آيات حينها، لم تخبر جاد أيضاً عمّا كان يشغل تفكيرها، فانتهت إلى شقّ قلبها إلى نصفين يربط بينهما خيط رفيع من خيوط حبها العذري.

أخبرتها أنها بحاجة إلى طبيب نفسي يساعدها على تخطي تلك الذَوبعة وإلا لن تخرج منها سليمة، لكن الذي حصل حصل ولا سبيل للرجوع...

قالت لي وقتها:

أعتبرك طبيبي النفسي، فأنا متأكدة أني لن أبوح ما يخالجني من مشاعر إلى أي شخصٍ آخر، لقد نصبّتك أعلى مراتب الكينونة السرّية، وهي المرتبة التي نعيش فيها خواطرنا وهاجسنا دون مشاركة أحد.

تمت خطبتها على جاد ثمّ غاب عن ناظريها ليسافر إلى قطعته كما وجهتّه الخدمة العسكرية، فيعود جواد إلى مضمار سباق النبض... كانت تتواصل معي كل مدّة لتخبرني أن هناك شيئاً يعتريها، شيئاً من الخوف اللذيذ بنكهة الاستمرار.

أمور غريبة تأرجحت بين الشقيقين، تكلمت عن تغيّر جواد وهدوئه المفاجئ أمام رغبتها في الممازحة بيّد أن نظرات الإعجاب ملأت عينيه لهفة ورغبة فيها، مما أطفأ حمم قلبها بثلوج الشوق ثمّ ما يلبث أن يعود

إلى جوّه الهزلي مصحوباً بغيوم الجدّية التي تهطل عليها بنظرات هاربة، عندما يعود أخوه جاد بإجازة من الخدمة!

بينما جاد كان مشغولاً بعّد أيام خدمته كلما رآها وسؤالها عن تفاصيل أحداث قامت بها ولم ترويها له!

كأنه يراها ولا تراه

قريبٌ منها ولا تستطيع ملامسته

شيء ما يفصل بينهما كلوحٍ زجاجي

يُومئ لها فتشعر به

يصرخ فلا تسمعه

دخان تقبض عليه بكلتا يديها

فيتسرب بسهولة من بين أصابعها

تراقبه بحذر فلا يفضي لها بنتيجة ...!

كنت مستمراً على نصحها بالابتعاد عن متاهة جاد وجواد فهي صغيرة والحياة أمامها تدور من حولها تُداعب أيام مخبئة لها لم تعشها بعد....

أعترف أن آيات التفاتتي الأولى لجنس حواء التي سرعان ما تحولت إلى إعجاب اشتعل عندما بدأت تُفضفض لي عن حبها الغارق في محيط التوأم المشهور في بلدتهم.

طريقة كلامها والطيبة المغلفة بالعفوية جعلتني أقف عندها كطوق نجاة ينتظر إشارة منها لينقذها مما هي فيه...

آيات غير كل الفتيات اللواتي صادفتهن في مسيرتي، جذب مغناطيسي غامض بسحره كمثلث برمودا... لها هالة معجونة من خليط بالألغاز مع جزيئات قوية من الرغبة لحلّها... أدخلتني نفقاً ما كنت سأدخله لو لا انجذابي لها...

الحب ليس فوضى حواس واهتزاز مشاعر كما يُعتقد

بل هو حجر أساس قاعدته المشاركة

لبناءٍ حصن في القلب يحتوي شتّى الأحاسيس...

الحب عطاء دون سبب

لا يعرف المقايضة ولا ينتظر المقابل في العطاء.

وكم من محبٍ مات من النوى زاهدٌ

وكم من حبيبٍ عاش في العشقِ حزينُ.

قُبيل مدة شهر تقريباً من عيد زواجنا الرابع أنا وراية كنت في المشفى أتهيأ لعودتي إلى المنزل ظهراً للغداء، إذ بأبي عبد الله يقف عند باب غرفتي وقد كان بحالةٍ رثّة ما اعتدته عليها... ولم ينطق بحرف وكأن الخوف أكل لسانه...

اقتربت منه ودعوته للدخول لأسأله عن حالة الفزع الذي هو بها، فقد كانت الأحوال لديهم في بلدتهم الصغيرة سيئة للغاية، رحبت به قائلًا له: مرحباً عمي أبا عبد الله، حمداً لله على السلامة... ما بك يا عم؟ خيراً إن شاء الله، هل أتيت وحدك أم مع عائلتك؟

سبقته الرعشة قبل الكلام ولم يكن في حالة طبيعية أبدًا! سألته حينها عن سبب هذا الخوف الشديد الذي وصل له، فرد عليّ بصعوبة قائلًا: لقد هربنا...

تفاجأت وقتها، والحقيقة لقد كانت صدمة كبيرة، فمسألة الهروب من تلك المنطقة خطيرة للغاية، وربما تصل إلى الإعدام في حال فشلت المهمة، جعلته يرتاح قليلًا ثمّ طلبت منه إخباري بالتفاصيل، أخذ يروي بصوت مرتجف قائلًا:

اتفقت مع صديقٍ لي يملك شاحنة نقل مغلقة، وغادرنا المدينة بعدما ساءت حالها كثيراً بقدوم داعش إليها، لقد أغلقت دكاني في سوق عُكاظ كوني أبيع المعاطف النسائية الملّونة فلا حاجة للمرأة في مجتمعهم لمثل تلك الملابس... عليها أن تكون ملتحفةً بالسواد من رأسها إلى أخمص قدميها محاربين جميع الألوان الزاهية والقصّات العصرية مُعلنين أن الأسود وحده صاحب الساحة الشرعية للملابس...

حسبنا الله ونعم الوكيل.

وتابع يروي: ليس وحدي مَن لحق به الضرر، كذلك جميع الأطباء ذوي اختصاص النسائية والتوليد أُجبروا على إغلاق عياداتهم، وفرض أشد العقوبات لمن يعمل بالخفاء في تلك المهنة، ولمَن يتعامل معهم على أنها جريمة يُعاقب عليها إذا كشف رجلٌ على جسد امرأة معللين أن تلك المهنة نسائية بحتة.

كذلك محلات الحلاقة الرجالية لاقت منهم أقسى التهديدات، ومنعهم من مزاولة حرفتهم والاعتماد على رخي اللحى وتوحيد المظهر الخارجي للرجال، ناهيك عن عقوبات الجَلد التي نُفّذت في الساحة على مرأى الجميع لأسباب قاموا بتصنيفها بالمعصية كَمشاهدتهم لأحد الشباب الذي لا يتعدى عمره الرابعة عشرة خارج المسجد في وقت الصلاة....

وقد قاموا بإحراق كل محال الألعاب الإلكترونية وَالجوالات والحواسيب على أنها شيطان يدعو للهو واللغو ليبعد الناس عن العبادة وعدم الالتزام بالتعاليم الإسلامية...

قاموا كذلك بتحطيم التمثال الحجري للشاعر عمر أبو ريشة بالمطارق مدّعين أنه صنمٌ قامت الجاهلية بتهريبه إلى هنا...

جعلته يرتاح من التحدث بعض الوقت ليتابع بعدها أن أحداث كثيرة حصلت في منبج جعلت الحياة فيها شاقة جداً، والأهم من كل ذلك أنه لم

يعد يملك رداء الأمان ليلبسه إلى بناته كي يحميهنّ من ضعاف النفوس حتى زوجته بات يخاف فقدانها بتكبيرات ثلاث!

قلت له بلهجة تدعو إلى الطمأنينة: حسناً يا عم، لقد أحسنت صنيعاً بمجيئكم إلى حلب بالرغم من صعوبة العيش هنا أيضاً...

إلا أني وقتها أخذت أكفكف عنه دموعه وألمه، جمعتها في كفوف الصبر ثمّ نفثها بعيداً...

في الواقع لا تبكي عيون الرجال إلا عندما تهتز جبال الرجولة

وتتفجر منها سيول الإحساس بالضعف.

سألته بعدها كيف استطاع مع عائلته الإفلات من سطوتهم؟

أجابني قائلًا: اختبأت عائلتي مع عائلة صديقي داخل الشاحنة المغلقة في العمق منها بعد أن قمنا بتغطية المقدمة عند فتح بابها بأكياس القمح، ثم اتجهنا نحو طريق المطحنة لنوهمهم بأننا ذاهبون إليها لطحن حمولة القمح، وبعدها عكفنا إلى ممر ترابي مهجور أوصلنا إلى طريق مؤدية إلى مدينة حلب من الجهة الجنوبية... لقد طال الطريق معنا كثيراً لنصل إلى هنا مستغرقاً معنا عشرة أضعاف الوقت السابق.

أعطيته جرعة تفاؤل وبعض الكلمات المشجعة التي يحتاجها الشخص عند التعب، ثمّ سألته عن عائلته ومكان تواجدهم فأجابني بأنهنّ حاليًا يسترحنّ في الحديقة القريبة من المشفى، فقد كانت آيات أخبرته أني

أعمل هنا... وأخبرني وقتها أن آيات وقعت في حالة نفسية جداً صعبة والحزن لا يفارقها مما أدخلها في دوامة اكتئاب شديدة لم يستطع أحد إخراجها من الحالة التي فيها، ولا كيف حتى تعيد توازنها.

قلت له حينها: حسناً يا عم، لقد أبليتم حسناً بقدومكم إلى هنا، فأنا لا أنسى صَنيعكم معي في الفترة التي قضيتها في منبج أثناء خدمتي الطبية هناك.

لم أجد مأوىً لهم حينها سوى منزلنا في شارع النيل هو بالأحرى منزل أمي الذي اشترته حديثاً من مخزون عملها الخاص لبيع الشوكولا والحلويات الغربية... كان المنزل مفروشاً ومجهزاً للاستفادة منه كَدخل إضافي من خلال تأجيره، إلا أن أمي كانت تنتظر عائلة على تفصيل مزاجها، فقد طلبت من السمسار عائلة مكونة من شخصين فقط هما عبارة عن عروس وعريس كيّ يبقى المنزل جديداً بإبعاده عن الاستهلاك البشري المكثف.

أوصلت أبا عبد الله وعائلته إلى المنزل، وأخبرته أن يتصل بي بعد استراحتهم من مخاطر الرحلة، ثم عرجت على السمسار لأعلمه أن المنزل امتلأ من طرفي بأصدقاء قدامى كي لا يزعج الضيوف بعدما أقنعت والدتي طبعاً بالثواب الذي سيأتيها بإيوائها بشكل مؤقت عائلة نازحة من براثن الحرب.

كانت آيات متعبة للغاية وكعادتي لن أكون بخيلاً في النصح لها والوقوف بجانبها، لكن لم أتوقع أن مهمتي هنا قد انتهت من مرحلة الإصغاء لتبدأ أول خطوة من خطوات الفعل.

أخذت الذكريات مفعولها حتى ملأت صدري حزناً مثقلةً إياه ألماً كلما تنفس فلا سبيل للنوم في هذه الليلة، لذا قمت للوضوء لأقرأ سورة يس على وهج الشمعة...

الكهرباء مقطوعة منذ شهر تقريباً ولسوء الحظ أو مشيئة القدر كان الأمبير المغذي لبنائنا بالكهرباء معطلاً، ولا يوجد بنزين لِتشغيل مولدة الكهرباء الصغيرة، مما جعلنا نقضي مساءنا على ضوء الشموع.

دلفت أولاً إلى غرفة حياة لأطمئن عليها، رأيتها غارقة في النوم بجانبها راية مستلقية على مقعد صغير ملاصق لسريرها مستسلمةً لعاصفة الأحداث التي حلّت بنا...

اقتربت منها لأوقظها ونذهب إلى غرفتنا نرتاح بعد عناء يوم مؤلم بالنسبة لي وسعيد لراية كونها ملكت أثمن هدية في عيد زواجنا الخامس... وقبل أن أمد يدي إليها داهمتني الكهرباء بغتة، وأشعلت نورها فأضاءت ما كان مخبئاً في عتمة المجهول.

رحت أطفئ أضواء المنزل وكأني أخبرها أني غير مستعد الآن لتلقي المزيد من الضربات، إلى أن مررت بجانب جوال راية، كان كالميت

بارداً مرمياً بجانب قابس الكهرباء ينتظر حرارتها ليتدفأ بها... فأخذته ووضعت شريط الشحن فيه وأوصلته بالكهرباء ليمتلئ بها، ثمّ ركنته على المنضدة بعد أن قمت بتشغيله...

صَفيره المتواصل يعلن عن وصول رسائل نصية كانت تنتظر تشغيل الجوال... عدت إليه لأضعه على خاصية كتم الصوت كي لا يوقظ حياة ويزعج راية....

قسماً بالله العظيم لم أكن أنوي التلصص عليه أو سرقة ما جاء فيه من رسائل... هو الذي فتح لي صندوق رسائله لأقرأ عناوينها من الخارج... كان هناك مجموعة رسائل واردة آخرها أتت الأمس ظهراً، تفوح منها رائحة الاستغاثة...

أخذت أقرأ ما ظهر أمامي بنوع من الدهشة وعدم التصديق!

الرسالة الأولى:

القذائف لا تهدأ عندنا... راية نحن في خطر.

الرسالة الثانية:

ماذا أفعل يا راية... أنا خائفة جداً.

الرسالة الثالثة:

أشعر بالموت يحوم حولنا... إنه قريب أراه أمامي.

الرسالة الرابعة:

أمانتك ابنتي يا راية... ستكون ابنتك كما وعدتني.

ماس جنوني سرى في أوصالي بل ركض مسرعاً يشدّه الفضول بكل قوة لأفتح وأتأكد مَن هي صاحبة الرسائل...؟

الأولى تاليا

الثانية تاليا

الثالثة والرابعة تاليا أيضاً

أذكر أنّ لزوجتي صديقة اسمها تاليا هاجرت مع أسرتها إلى السويد، لكن هناك لا وجود للقذائف والحرب ولا يحزنون!

وهذا الرقم ليس دوليّ، إنه من داخل سورية

تسعة أربعة أربع تسعة اثنان سبعة... وأخذت أقرأ الرقم إلى نهايته فوجدت إنه رقم زوجتي! زوجتي الثانية آيات ومن غيرها ...؟!

(4)

في غفلةٍ ما قد ننجو من الموت

أو قد نموت غافلين

كانت صدمة جاد مع نفسه قوية من هَول الخبر الذي آتاه مثل زلزال مع سابق إنذار، فمنذ أسبوعٍ مضى حطّ على صدره ضيق شديد كاد أن يكتم أنفاسه، صاحبه خدرٌ أصاب ساقه الأيمن، فقام من إثره مذعوراً... أسرع إلى الوضوء ثم الصلاة داعياً الله تعالى أن يتلطّف في قضائه.

عندما نشعر بالعجز جراء سموم أفعالنا الطائشة، نفتش عن أقرب علاج بين البشر... بينما الترياق الأفضل يكون في التقرب من الله تعالى، بمواظبة الصلاة وقراءة القرآن الكريم والدعاء.

فالأمر بسيط جداً ... لا يتطلب سوى التوبة والاستغفار.

وهو الآن يترّنح أمام الموت كالسكارى، ولم يجد مَن يسنده سوى ذكرياته مع أخيه والاتفاقية التي جرت بينهما منذ أكثر من ثلاثة سنوات.... هو من بعد اللحظة جواد وجاد بذات الوقت، ليس بمزاجه بل

القدر فرض عليه تلك العقوبة دون أن يعطيه فرصة للاستئناف في الحكم.

فالحياة قبل الموت ليست مثل بعده

كاختلاف التاريخ ما قبل الميلاد وبعده.

انعقد الخبر مثل انعقاد حبلٍ يصل بين حياتين، حياة الموت وحياة الحياة... وهو واقفٌ بالمنتصف يتمايل بتفكيره المجمّد إلى ما تحت درجة الهذيان يفصل بينه وبين الجنون شعرة، إذا انقطعت حُلّ كل شيء...

هو الآن محامٍ باسم جواد الحسن وشهيد باسم جاد، لا ينفك يفكر بطرح أصعب سؤال على نفسه: مَن أنا؟! وما معنى تلك الكلمات التي حملّها جواد إلى صديقه ليبلّغني إياها...

اسمع نبض قلبك

هو سيدلك على الطريق الصحيح

ولتكنْ كما تريد فأنت حر

أيّ امتحانٍ هذا الذي يجعله حائراً في الإجابة على سؤال واحد جوابه واحد من الاثنين!

إما أنا أو هو.... لم يعد يجدي نفعاً أن يكون الاثنين معاً

عليه أن يختار بينهما إما جواد أو جاد فذلك التغيير ليس بالسهولة التي كانت سابقاً... لم يعد مجرد كلام متفق بينهما أو كبسة زر تحدد ما يصبح كلاهما عليه! بل أصبح ذلك مستحيل...

بالإضافة إلى وجود قضية خداع، تزوير وانتحال شخصية.

جميعها تدور في دائرة محيطها حياته ومركزها الموت....

الأسوأ وجود آيات بينهما، وكيف ستقبل تلك الواقعة!

الأفضل أو الأسلم لهذه اللعبة أن يدعها ترقد بسلام في الوقت الراهن ليفكر بهدوء كيف ومتى يستطيع إيقاظها حتى يعود الصواب إلى مجراه الحقيقي.

لا تُقاس الحياة بِالأنفاس التي نأخذها

بل باللحظات التي تقطع أنفاسنا.

لفّ المدينة شريطاً من الحزن كَون جاد الشاب ذو الأخلاق الحميدة قد رحل في ريعان عطائه، مرافقاً له شريطاً آخر من الزهو والفخر لاستشهاده في سبيل تراب الوطن...

وبعد ثلاثة أيام عاد الملازم حاتم برفقة مجموعة من الجنود في شاحنة عسكرية داخلها صندوقاً لُفّ بالعلم السوري، كان باستقبالهم جميع الأهالي والأصحاب وهم يهتفون لا إله إلا الله والشهيد حبيب الله...

تقدّم جاد الجموع وهو ممسكٌ بساعد والده حتى وصلوا جامع الشيخ عقيل ليقوموا في صلاة الميت على جثمان أخيه ووداعه، من ثم يحملونه إلى مثواه الأخير في مقبرة المدينة ليقوموا بدفنه هناك....

كشف جاد التابوت ليلقي آخر نظرة على أخيه، فلم يرى ما كان يقضي أن يراه... كانت الجثة مشوهة بحروق شديدة، ولا يظهر منها أية معالم تثبت أنها لأخيه جواد...

لم يستطع جاد الجزم في هوية هذا الجسد الذي لفظ أنفاسه الأخيرة بين ألسنة النار، مسقطاً بشكوكه في خندق البحث عن الحقيقة...

والطريقة الوحيدة لوأدها هو قطع حبل الشك باليقين من نهايته والشخص المناسب لتلك المهمة هو آخر شخص كان مع جواد ألا وهو صديقه الضابط حاتم الذي نقل إليه الرسالة الشفهية.

أمسك جاد به بعد انتهائهم من دفن جواد بجانب جدّه الأكبر ربيع كما أوصاه، ثمّ راح يستفسر منه كيف استشهد أخيه قائلًا له:

ألن تخبرني شيئاً أيها الملازم؟

أخذ الملازم نفسًا عميقًا وصل إلى قاع الحزن قائلًا:

اعذرني يا جواد فموته كان مؤلماً جداً.

تابع جاد قوله:

الأجدر بك أن تقصّ لي كيف توفي أخي، لأتأكد أنه هو... فالحروق طمست ملامح وجهه وجسده مهلهل لم يبقى منه إلا القليل حتى أنه بدا كجثمان طفلٍ صغير.

ردّ عليه: لا حول ولا قوة إلا بالله... اسمح لي أن أروي حادثة استشهاده أمام جميع أهل البلدة فهو يستحق حمل شرف البطولة، وأقل ما يُمكن عليه وجوب تسمية صرحاً حكومياً أو شارعاً رئيسياً باسمه...

وقف حاتم بين جاد ووالد الشهيد في صدارة صالة العزاء ثمّ أخذ يسرد القصة:

السلام عليكم يا أهل الشجعّان والبواسل...

بسم الله الرحمن الرحيم

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ*

صدق الله العظيم...

يشرّفني أن أخبركم أن ابنكم البار لوطنه، الشريف والمقدام صديقي الملازم البطل مصطفى جاد الحسن قد ضحّى بروحه من أجل سلامة زملائه الجنود دون أن يكترث لسلامته...

واسمحوا لي أن أقصّ عليكم كيفية استشهاده.

كنّا قد أنهينا معركة ضارية بيننا وبين الجهة المعادية على أطراف مدخل بلدة سلمى الجبلية الواقعة في محافظة اللاذقية، ومن بعد قتل عناصر القوات الإرهابية، وأسر ما تبقى منهم أردنا دخول البلدة كي نقوم بعملية تمشيط الشوارع والمنازل كي نتأكد من خلوّها تماماً من فصائل الإرهاب التي أسكنتها خوفاً ورعباً لنقوم بعدها بإعلانها منطقة آمنة، فيعود أهلها الذين نزحوا منها بتهديد السلاح....

كنّا فصيلتين من الجنود، نسير ببطءٍ شديد واحدة منهما يقودها الملازم جاد وأنا أقود الأخرى، وخلال طريقنا وطئت قدمي بلغمٍ تعثّرت به أثناء المسير، توقفت في مكاني ولم أتحرك حتى لا ينفجر اللغم ثم صرخت عليهم ابتعدوا عن الطريق فهو ملغوم...

قام جاد بأمر العناصر المجندة بالابتعاد، إلا هو ظلّ قريباً مني...

ثمّ أخذ يتصل بالفريق الهندسي المتخصص بفك الألغام الأرضية ليأتي ويقوم بتطهير المكان.

تأخرت المساندة لصعوبة الوصول إلى الموقع وجاد ما انفك يمدني بعبارات الصبر بعدما لمس التعب في وضعية وقوفي ثابتاً، أم هو فكان يراقب بعينا الصقر أسطحة البيوت المطلّة علينا، وقد أيقن بحنكته العسكرية التي يتمتع بها أن هناك خطراً يترصد بنا من زاوية غير

واضحة من جهتي، فأسرع وأحضر صخرةً ليضعها على اللغم فتضغط عليه حتى تعمل عمل الثقل عليها.

للأسف كنت أرتجف خوفاً من الموت، أما هو فكان شجاع إلى حد الذهول، كان واثق الخطى فيما يفعل... وبلحظات ضئيلة أخبرني فيها رسالة كيّ أنقلها إلى أخيه مضيفاً عليها أننا قريباً سنحتفل بالنصر وأن كل شيء سيكون بخير...

قلت له بأني لن أتحرك من مكاني، فإما نموت معاً أو نعود منتصرين... أجابني حسناً ثمّ دفعني بقوة وطلب مني الركض مبتعداً بعدما أثقل اللغم بالصخرة لأقوم بعدها بحمايته من الجهة التي شكّ بوجود الخطر منها...

حدث الأمر بسرعة البرق، فما أوشكت الابتعاد قليلاً عنه حتى انهال علينا وابلٌ من الرصاص يرافقه عبوات حارقة معبأة بالبنزين مصنوعة يدوياً... قمنا بتغطية جاد وهو يهمّ بالركض نحونا، إلا أنه لسوء الموقف تعثّر بحجرةٍ كبيرة وقع إثرها أرضا.

هذه اللحظة لن أنساها فهي كالوشم المشؤوم في ذاكرتي حين تفجرّ لغمٌ آخر جرّاء زخ رصاص الإرهابيين عليه ممّا أدى إلى أكل ساق جاد الأيمن ليتدفق منها الدم بغزارة...

نظر نحوي نظرة وداع صارخاً في وجهي:

إيّاك أن تقترب مني، اقضوا عليهم جميعاً... لا تدعوهم يفرّون بفعلتهم.

صمت حاتم برهة بينما أخذ جاد يتحسس ساقه اليمنى التي أخبرته منذ زمن أتى بوقع الحادثة ثمّ مضى حاملاً معه قلقاً خفياً لم يُخبر به أحداً آنذاك.....

الحقيقة ليست بالضرورة أن تكون واقع والعكس صحيح

أي الواقع غالبًا ليس بحقيقة

هناك اختلاف واضح بين الحقيقة والواقع.

تابع حاتم بصوتٍ يمطر حزناً وألماً قصة استشهاد جواد، بينما الواقع كانت قصة استشهاد جاد! ذلك لأن جاد وحده يعرف من صاحب القصة أو البطل الحقيقي، أخذ حاتم قائلًا:

تبادلنا إطلاق النار مع الجهة المعادية، بينما جاد أخذ يزحف بجسده نحونا وهو ينزف هاتفاً لنا: هيّا لا تضعفوا، أنتم أبطال الأمة أنتم جنود النصر...

ومن جِهتهم كنّا نسمع:

الله أكبر الله أكبر اقتلوهم احرقوهم فرداً فرداً... اشتعلت النيران في القسم العلوي لجسد جاد رحمة الله عليه ثمّ....

امتلأت عينا حاتم بالدموع وتوقف عن الكلام فلم يعد يستطيع أن يخرج الحروف من بين شفتيه، كَون الألم قام بلزق حباله الصوتية ببعضها البعض.....

تعالت في الصالة عبارة لا إله إلا الله والشهيد حبيب الله، ثمّ أجمع حاتم صوته المخنوق لينهي به ما بدأ من حديث قائلًا:

استطعنا بعون الله أولاً ثمّ بإلحاح الشهيد مصطفى جاد على أن ننتصر عليهم والحمد لله...

هذا هو البطل المخلص جاد الذي ضحّى بروحه فداءً لحمايتنا، ولم يتردد ولو للحظة واحدة لإنقاذنا جميعاً، إنه تالله لقدوة يُحتذى بها عبر الأجيال من فخر وشرف، أما أنا فكنت جباناً لحظتها، وآثرت بنفسي عن الفداء بينما هذا المغوار الشجاع لم يأبه للخوف لينقذ الجميع من الموت...

لا يسعني سوى القول بأن الشهيد البطل لقنّا درساً لن ننساه ما حيينا في الوفاء إلى الصداقة والإخلاص إلى الأرض وإلى الوطن....

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كل منّا لديه مراحل يعيشها في الحياة...

ولكل مرحلة من الحياة وقت يترك فيه الأولى ليبدأ بالأخرى.

بدأ الشيخ بقراءة الفاتحة على روح سيد المرسلين نبينا محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم، وعلى روح البطل الشهيد مصطفى جاد الحسن وعلى أرواح جميع الأخوة المسلمين، ثمّ تابع ما تيسر من تلاوة للقرآن الكريم .....

شرد جاد بفكره هامساً لها:

كم أتمنى أن أكون ما أنت عليه يا جواد، سامحك الله وغفر لك، حتى الشهادة أخذتها مني يا أخي!

كيف أواصل العيش في حياة حقيقتها أنت؟

جعلتني أموت فيها وأنا حياً في حياتك

أفتش هنا وَأبحث هناك عن الإحساس الصادق

عن الحب المخبأ في الخنادق

عن هدوء المشاعر في ازدحامٍ طالته البنادق

أهتفُ... أهتفُ بصوتٍ خانق

أريد حياةً لا كاذبًا فيها ولا مُنافق

أعاد قارئ القرآن شرود فكر جاد إلى واقعه حين تلا الآيات من سورة الإسراء...

أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا* وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا* وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا* وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا *....

فتابع جاد في سرّه الدعاء... اللهم برحمتك أستغيث، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت وحدك السميع العليم.

أطلق جاد العنان لقلبه، ثمّ أخذ يسمع نبض الأعماق بحرية كما أوصاه أخاه الشهيد...

همسات طافت على وجه الحقيقة تخبره أن لا قوانين مع الموت، وأن القاعدة الأساسية في كلّ لعبة هي الحياة... مقرراً أن يعود إلى ما كان عليه بعد الانتهاء من طقوس العزاء وليكن ما يكن، المهم أن يتصادق مع نفسه لترتاح الروح.

أهم الصداقات هي أن تُصادق نفسك

تفرح لفرحها وتحزن لحزنها ...

تواسيها عند الألم وتخفف عنها الهم

وتقوم على وعظها قبل الوقوع في الخطأ

وإذا وقعت فانكسرت تجبرها بالاستغفار لتعود أقوى مما سبق.

استمر العزاء لمدة ثلاثة أيام يستقبلون فيه الناس ليقوموا بالواجب...

صادف جاد آيات عدة مرات عندما كانت تأتي مع والديها، لكن آخر يوم منه كان أشد وطئًا على قلبه حين التقاها في مدخل البناء بعدما دلف أبو عبد الله إلى قسم الرجال...

فوقفت آيات مع والدتها أمامه تشدّان عليه بعبارات الرثاء فاغتنم جاد فرصة حضورها ليغمرها بنظرات الشوق والودّ وإذ هي تُلملمها بابتسامةٍ ملغومة فجرّت منها قنبلة الحيرة.!

جعلته ينازع بقراره بالاعتراف في إفشاء السر وإبطال اللعبة وبين متابعتها حتى آخر رمق... قابعاً طوال الليل يفكر في ردّة فعل آيات نحو تلك النظرات التي بَادرته إياها بشغف على أنه جواد...

لم يستطيع النوم حينها، فقد كان كل ما يشغل تفكيره تلك الشظايا التي فتحت فجوة في قلبه لتتسرب منها شلالاً من الظنون لا يُحسد عليها....

واصلت الليالي عملها في سقاية شكوكه المزيد من الوساوس حتى نبتت داخله هواجس تتساءل مَن هو حبيب آيات الحقيقي:

أهو جاد أم جواد؟!

أوقعه الجواب طريحاً بين نارين، نار شوقه المكنون لها كونه خطيبها المتوفى والمفروض أن يكون حبيبها الغائب إلى غير رجعة مما يجب عليها أن تكون حزينة على رحيله، ونار الغيرة من أخيه جواد الذي يعيش في جسده، مقيّداً به لا يعلم كيف يخرج منها سليماً، فهو من القديم يقوم بتكذيب ما يَختلجه من إشارات دلّت على أن حبّ آيات الأول لأخيه وليس له كما ظنّ أو كما أراد أن يصبح ويمسي.

لكن الأنانية في الحب طغت لديه لتحوّل تلك الإشارات إلى هوس الملكية مهما كانت الوسيلة ليصل إلى غايته وهي قلب آيات بكامله، ولأنه حاول بشتى الطرق مُتجاهلاً ما ظهر أمامه من مطبات كاد يحصل فيها على ما يريد لولا موت جواد المفاجئ الذي خرّب كل شيء ليعيده إلى نقطة الصفر متجاهلاً كل إنجازاته.

قد لا نعلم أننا في حرب إلى حين نتكبد الخسائر.

دخل جاد في مصارعة حرّة مع نفسه وعاد يسألها مَن أنا؟! ومَن أريد أن أكون عليه؟ أو مَن يجب أن أكون! تصارع فيها خيره مرتدياً ثوب الصواب مع شرّه الذي تميّز بأثواب الخطأ، ولكي تكتمل المبارزة لا بد من وجود الحكم بينهما ألا وهو الضمير، ودون إشارة للبدء تقدّم الخطأ ووجّه أولى لكماته قائلاً:

ما دامت آيات تريدك جواد فلما لا تكون هو؟!

ردّ له الصواب بلكمة موجعة سائلًا:

وكيف ستكمل حياتك؟ وأنت كلما وقفت أمام المرآة سترى جاد...

مرر جاد يده على أسفل ذقنه ثمّ هجم الخطأ بتصريحه:

بل سترى جواد لا شيء يفرّق في مَظهركما، حتى الندبة ذاتها شاهد على ذلك...

قاطعه الصواب منذراً:

هي شاهد زور وأنت تعلم ذلك...

جميعنا نملك عيوناً نرى خلالها المظاهر الخادعة

لكن إن كنت تريد أن تشتفّ الحقيقة

فعليك بعيون القلب وما تراه في البواطن

لقد قلتها لك آلاف المرات (الإحساس أقوى من النظر).

ردّ الخطأ بتهكم:

وما فائدة أن تعود جاد؟ ستخسر الألقاب التي نلتها من بطولة وشجاعة، بالإضافة إلى الأوسمة التي حملتها طيلة حياتك من الخلق الحسن إلى طيبة المعشر ستذهب جميعها أدراج الاعتراف بالغش والخداع اللذان قمتما في ممارسته على المجتمع المحيط حَولكما...

قاطعه الصواب:

لا بد للحقيقة أن تظهر، وإن دفعت ثمنها ما ذكرت!

قهقه الخطأ متسائلًا:

وما الذي يسعدك؟ إن آيات هجرتك بعد أن تعرف الحقيقة.

رد الصواب:

تلك الحقيقة التي تتكلم عنها هي الواقع الذي قمنا في تَشويهه سَوية.

علقّ الخطأ على كلام منافسه:

دعك من الحقيقة وتشبث بالواقع... فالواقع أن آيات تحب جواد، والحقيقة هي في حبك كاذبة مخادعة، وافقت على الارتباط بك لتبقى قريبة منه، فأنت لم تكن سوى قارباً تعبر به لتصل إلى أخيك وها قد أتتك الريح بكل قوة لتصل إليك، فلما تقوم بصدّها يا عزيزي...؟!

ردّ عليه الصواب غاضبًا:

ويحك، هذا كلام خطير... مستحيل أن تنفخ روح أخيك في جسد أخرى (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا)

سأل الخطأ بلهجة ساخرة:

والذي كنت عليه طيلة السنوات الماضية ما هو؟

ثم تابع قائلًا:

أنت تناقض نفسك دائما!

تُوهمها أنك في برجٍ عالٍ وهي أسفل السافلين

حين وافقت على اللعب في تبادل الأوراق

وأنت تعلم أني تلك الخطيئة المتكاثرة في رحم الأعذار

من أول تبرير أُولد وَبتكتم شديد أنمو...

أنا هي المرسومة على جدران التوبة

ليراني الجميع ويبتسم ابتسامته الصفراء....

جميعكم يصاحبني مختبئاً وراء إصبعه

متجاهلاً إياي رغم مرافقته به كظله

وَما أروعكم في التمويه عندما تُطلقون عليّ عدة أسماء وألقاب...

أنا تلك الخطيئة التي تعرفكم فرداً فرداً

ولا أحد يعترف بها أو يتغابى في التعريف

مع أني أمتص الحقد والشرّ والغضب

لتكونوا بأبهى حِللكم على حسابي...

أعشق نفوسكم الضعيفة فأقوم بالتعايش معها

كعيشة الهر والفأر إلى أن أنال منها

لست متطفلة أبداً كما قمتم على اتهامي

فأنتم بكامل الرغبة تدعونني إلى موائد شهواتكم....

أنا هي التي تعبث بقوانين الحرية كما تشاء

تنفخ بها مثل ريشةٍ في الهواء

وتعرف متى تنسحب ومتى تعلن سيادتها...

أنا الخطيئة التي استعاذت مني الكاتبة

واستغفرت مئات المرات لتخط عني القليل جداً

بالرغم أني بها ومعها واقفةٌ باستعدادٍ دائمٍ لها وراء الباب...

ومن منكم بلا خطيئة؟ أخبرني.... من منكم يعيش بدوني!

تدّخل هنا ضمير جاد رافعاً الكرت الأحمر، قائلًا:

لا يكفي أبدًا الاعتراف بالخطأ ولا يجوز إصلاح الخطأ بخطأ...

بينما الصواب هو أن تعود لجاد.

فليس انتصاراً أن تهدم أسوار قلاعي وأنت تملك مفاتيح أبوابها.

عاد الخطأ يداعب نقطة ضعفه قائلًا:

قف..... تمّهل، تقرّب من آيات أكثر لتتأكد من مشاعرها ثمّ انثر ما بقي من أوراق لجواد وافتحها دفعة واحدة قبل أن تحرقها دون جدوى، وإن شئت عد جاد أو ابقَ ما أنت عليه، وكما أوصاك جواد... فلتكنْ كما تريد فأنت حرّ.

قاطعه الصواب مردفاً:

قفزت إلى العبارة التي أعجبتك مباشرةً! ولم تذكر اسمع نبض قلبك فهو سيدلّك إلى الطريق الصحيح....

ثم تابع قوله موجهًا الحديث إلى جاد:

لقد كان جواد يعلم ما يشغل قلب آيات وتفكيرها؟ فأخذ الصمت له ملاذاً حين اعترفتَ بحبك لها أولاً... أخيك جواد احترم مشاعرك تجاه آيات يا جاد... وقام هو بكتم نبضه مقابل الرابط الذي يَجمعكما.

أتى التعليق الأخير من الخطأ قائلًا له:

لا تجادل كثيراً فأنت في النهاية بشر، وعليك أن تقامر أحياناً بمشاعرك كي تصل إلى هدفك... وكما أخبرك أخاك في النهاية فلتكن كما تريد فأنت حرٌّ.

أصعب أنواع الجهاد جهاد النفس فقد تستسلم لها في أي هدنة.

بقيت نتيجة المبارزة معلّقة على سطوة الخطأ مرة أخرى بعد انسحاب الضمير منها، فعاد جاد غارقاً في بحر الحيرة ماسكاً قلبه بيد وعقله باليد الثانية يتخبط بهما على أمواج الاختيار لإنقاذ ما بقي منه...

تارة يعلو القلب ليطفو على السطح، وتارة يطوف العقل فيغرق القلب.... إلى أن حصلت نفسه على مجداف نجاة لتتمسّك به وتشدّه بكل قوة فدفعها إلى ردّة فعل عكسية رست بها إلى شاطئ القرار... بأن يلعب لعبته الأخيرة مع آيات ويفتح قلبها بمفتاح جواد ويرى ما فيه، ثمّ يثبت شخصه بعد منحه ترخيصاً بمزاولة المهنة.

لم ينتبه جاد للعبارة التي كُتبت في وسط المجداف

(اِخْتِيَارُكَ نَتِيجَةِ قَرَارَكَ، أَمَّا اَلْقَدَرُ فَهُوَ بَرِيءٌ مِنْهَا)

انقضى أسبوعان على دفن جواد تحت الثرى، عاد كلٍ إلى عمله المعتاد فهذه سنّة الحياة، والموت حقّ على الجميع ولا شيء يدوم سوى وجهه ذو الجلال والإكرام.

عاد جاد إلى حلب بعد أن قرر على البقاء بشخصية جواد في الأوراق الرسمية ليكمل ما بدأه بالتدريب القانوني في مكتب محامي خاص للقضايا الجنائية بعد أن تمّ تقييد وفاته في السجلات المدنية، وبذلك تمّ بشكل تلقائي فسخ عقد القران مع آيات، فهي الآن أصبحت مطلقة عذراء في السجل المدني، ولم يعد لها علاقة رسمية مع جاد كونه متوفى.

رويداً رويدًا استطاع التأقلم في حياته الجديدة، وبلع مرارة ما مرّ به على أنه نصيب، قاطعاً وعداً لنفسه على أن تكون أول قضية يترافع بها هي إثبات شخصية جاد في الحياة، وإرجاع كل روح إلى صاحبها مهما كان الحكم في القضاء بنيله الجزاء المنصوص في القانون في مثل تلك الحالات، وقد اندهش جميع مَن حوله لتغيير طباعه وهدوءه، وكي يخرج نفسه من دائرة السؤال عن ذلك أقنعهم أن فقدان أخيه جاد قد ترك أثراً فيه متابعاً في قرارة نفسه القول المتعارف، ولا يوجد جريمة كاملة.

هناك أحزان داخلية بإمكانها أن تعصرنا بصمتٍ حتى الموت

دون أن يخرج منّا صرخة واحدة.

كان جاد مسافراً في رحلةٍ مفتوحة محطاتها اختلاف النفس، توقف مراراً عند النفس الأمّارة بالسوء والباطل، فشرب الشر من كأسها إلى أن ارتوى....

ثمّ أتته بعدها استراحات النفس المطمئنة التي امتثلت أعلى مراتب السكينة والطمأنينة فأكل منها دون شبع، وما لبث أنّ انضمت لهما مواقف النفس اللوّامة التي تقع بين المحطتين فتخطئ مرةً ثمّ تلومه على هذا الخطأ ليندم بعدها على ما فاته من خير.... وهكذا...

وجود الخير والشر في النفس البشرية أمر لا جدال عليه، فمنذ وجود الإنسان على الأرض وُجدت معه تلك القوتان العظيمتان، والصراع مستمر بينهما داخل الإنسانية سالكاً طريق التصادم، فنجده متغلغلًا في كل أجزاء الحياة وتفاصيلها.

حتى داخل الفرد نفسه هنالك صراعات متأججة لا تكاد تُحصى بين الرغبة والامتناع، بين الغضب وَالرضى، بين الشك واليقين، بين الكفر والإيمان...

وحتى لا تتوه العقول بين شعابها ولا تغلب علينا الحيرة بسبب المتناقِضَات، جعل الله عز وجلّ النفس البشرية هي النفس الأولى لديه... لقد اختصر لنا من رحمته ولطفه كل تلك المجاهيل، في قوله تعالى في سورة الشمس:

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا* فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا* قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا* وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

وعليه فإذا كان العبد منا موفقًا في طاعة الله، فَليحمد ربه على ذلك، وَلينظر في الأسباب التي أعانت على تلك الطاعة كي يستكثر منها، لأن ذلك من عوامل تزكية النفس التي تجعل خيره يغالب شره...

وإن عمد إلى أسباب تزكية نفسه وصدق في الأخذ بها، فسوف يسهل عليه معرفة معيار ما في نفسه من الخير والشر من خلال مراقبة أعماله، فيزيد خيره ويقل شره...

مراقبة النفس هي المعيار في الضبط بين الخير والشر.

أما إن غفل المرء عن ذلك واستسلم لنوازع الشر في نفسه، ثمّ نام في خُدر ظلماته، فسوف يذهب به ذاك السبات وذلك الاستسلام إلى وادي سحيق من التيه والضياع، فيعيش في عبث ويموت على هدر في القوى بعدما ضاعت عليه فرصة كبيرة في الحياة، والتي كان بمقدوره أن يضبط فيها مسيرته إلى الله تعالى من خلال مراقبة أعماله فيها لمعرفة معيار الخير والشر في نفسه.

تابع جاد خُطاه وفي داخله صرخات خانقة لا أحد يسمع لها أنين سوى روحه...

استمر بالتواصل مع آيات عبر رسائل الواتس، وكان كلما نزل إلى بلدتهم يقوم بلقائها إما في منزل أهله أو مصادفة في الشارع...

كانت آيات سعيدة بحب جاد الذي أوهمها بأنه حبيب قلبها الأول جواد، فهو أخيراً انتبه إليها كما ظنّت، وبادلها الأحاسيس باعترافه لها عن مكنون قلبه، لكن الشك وقف أمام فرحتها معترضاً حين قابلها مرة قائلاً: أكنّ لك الحب مذ كنّا صغاراً نلعب في حديقة دارنا ونغني معاً ونضحك، تطلبين منّي المساعدة في فروضك المدرسية.

توقف جاد عن استرساله فجأة بعدما انتبه لزلة لسانه عندما أوقعته في حفرة الذكريات، فهو مّن كان يساعدها في فروضها وليس جواد!

لكن آيات باغتته بسؤالها وكأن زلتّه لم تحظ بانتباهها بينما في الحقيقية من هنا لفظ البركان حممه الراكدة.... قائلةً له: ولماذا لم تخبرني؟

تنفسّ جاد الطمأنينة من كلامها وأجاب:

أخي سبقني إليك عندما قدّم لك علبة العطر هدية مرفقة برسالة يقول فيها أحبك.

قاطعته آيات بسؤال آخر قائلة له:

وما الذي أدراك بتلك التفاصيل؟! كان جاد من النوع الذي يكتم خبره، وهو لا يفضي بمثل تلك الأسرار لأحد!

يكفي أن يسبقنا الحماس خطوة واحدة كي نتعثر به

فإما أن نقوم ونتابع بحذر أو نرجع لنبدأ من جديد.

ارتبك جاد من زلة لسانه للمرة الثانية مُتعثراً بها ثمّ أخذ نفساً من أعماق صدره لينهض ويتابع:

أنا كنت أُراقبكما خُلسةً حينها وقد رسمت هذا الاحتمال.

ردت عليه آيات:

لكنه ليس احتمالاً بل هي الحقيقة التي انتظرتها منك.

خاب أمل جاد في حب آيات له، وأيقن أنه لم يكن سوى صورة عاكسة لأخيه اقتنتها كي لا تضيع منها النسخة الأصلية.

ولم يجد منقذاً له سوى رابط الأخوة المتين بينه وبين جواد كي ينقذ ما تبقى من وهم الحب، لكنّ بطريقة مختلفة... فقال لآيات إنه كان بئراً لأسرار جاد رحمه الله ثمّ تابع قائلًا في سرّه: إذا كنت بئراً، ألا يجدر بك أن تكون مُغطىً كي لا يشرب أحدٌ منه!

هنا أرادت آيات أن تختبر مدى صحة قول جاد، فَأردفت له العبارة السرية المتفق عليها مع خطيبها المتوفى والتي كانت شيفرة تواصلهما، فقالت له: الشمس تسطع كل يوم.

أراد جاد أن ينهي تلك اللعبة فأوقع نفسه هذه المرة في حفرة زلاته بعدما أصابها الغثيان من اللف والدوران حولها ودون تردد أجابها:

من عينيك يبدأ النهار.

ملأ الخذلان صدر آيات، ولم يعد في قلبها متسع من الحب لجواد أو لجاد، فقد تعبت من الشكوك التي شلّت تفكيرها، ولا تملك عكازاً لتستمر بالمسير في طريق الخداع.

سألته للمرة الأخيرة وقلبها يخفق على يقين بأن الذي أمامها هو جاد، قائلة له: لمَ فعلت ذلك؟

ثم تابعت:

كان بإمكانك أن تصارحني أنا فقط على الأقل بالحقيقة التي خبأتها على الجميع...

كيف لك أن تبادلني العواطف على أنك جواد، وقد جعلتك حبيبي واحترمت اعترافك لي بالحب قبل أخيك، ومن حينها أنت وحدك مَن ملك قلبي... لمَ أتيت الآن وعبثت بما تبقى لديّ؟!

أجابها جاد قائلًا:

أعترف لك أنّي أخطأت حين رضخت لوساوس الشيطان الذي ما فتئ يشكك من مشاعرك تجاهي، وأن ما بيني وبينك ليس سوى مشاهد تبرعين بتمثيلها كي تصلي إلى غايتك... أتمنى أن تصفحي عن طيشي...

ردت عليه آيات:

لا... كان بإمكانك الوثوق بيّ وأن تثق بنفسك أولاً لنتابع ما بدأناه معاً، متخطّين تلك العقبة بكل بساطة.... أنا التي أتمنى أن تسكن قصر النسيان مجاناً...

ولو لا الخذلان لما كان التمني.

طلب منها جاد طلبًا ولا يعرف على ماذا ستقرر آيات، قائلًا لها: دعينا نحاول ونبدأ من جديد، وسأكون جواد كما تتمنى أو أعود جاد كما ترغبين....

ردت عليه قائلة:

كم غضبنا... كم حزنا

وكم من مرّ الأحلام شربنا

كم تهددنا وتوعدنا وكم من أسرارٍ بحنا وَأخفينا

كم من عنفوان حطمنا ومن كبرياء أحرقنا

كم مرة من البداية بدأنا؟

دعك من ذلك كلّه، فأنا تعبت من كلاكما.

بعد تلك المواجهة قررت آيات أن تدير ظهرها للاثنين معاً، معلنة التراجع عن متابعة المسير في تلك المتاهة التي أرهقت قلبها وعقلها، متأسفةً على ما أوقعت روحها فيه من ألم وعذاب لما مرّ عليها في الأزمات النفسية، مخاطبةً إياها بكلمات مليئة بالأسف...

غابت آيات عن ناظر جاد كما غاب هوعن قلبها، كان الوداع سريعاً وقطعي لكليهما كالقيام على اقتلاع الجذور من التراب بَعدما ذبلت أوراق الحب على غياب جواد...

وفي الطرف الآخر شعر جاد براحة نفسية عجيبة على الرغم من تقديم عذرية نبض حبّه الأول قرباناً لها.

الصدق مع النفس يُخبرنا حجم الأخطاء التي تُثقل الأرواح بالهموم.

هو الآخر تعب من التفكير في ذات القصة التي لازمته سنيناً دون جدوى تؤول إلى مراده، فهو أيقن أن آيات تحب جواد وقلبها مليء به حدّ التخمة، ولا يريد أن يكون التحلية حتى يستمر معها على أنه أخيه، فإن كان عكس ذلك لبقيت معه واستمرت برفقته مهما حصل.

وصل صوابه أخيراً إلى عمق قلبه قائلاً له:

ماذا دهاك يا جاد؟ ما الذي غيّرك؟ ويلٌ لك! أنت الذي كنت صاحب المواعظ والحكم أم أنّ الأخلاق الفاضلة باتت مراءاة لديك كبعض الذين يُراؤون بالديّن فيُظهرون عكس ما يخفون، متجاهلين حقيقة أن كل امرئٍ مسؤول عن صحيفته، فإما يرفعها بالحسنات أو يثقلها بالسيئات.

ورحمة الله تعالى واسعة لا حدود لها، فقد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -:

"قال الله عز وجل: إذا تحدث عبدي بأن يعمل حسنة فأنا أكتبها له حسنة ما لم يعمل بها... فإذا عملها فأنا أكتبها بعشر أمثالها، وإذا تحدث بأن يعمل سيئة.. فأنا أغفرها له ما لم يعملها.. فإذا عملها فأنا أكتبها له بمثلها"، وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قالت الملائكة:" رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر به... فقال: ارقبوه... فإن عملها فاكتبوها له بمثلها وإن تركها فاكتبوها له حسنة، إنما تركها من أجلي".

باب التوبة مفتوحٌ دائماً وما علينا سوى تثبيت قلوبنا على الطريق الصحيح.

وفي غضون ما مضى بدأت عواصف الأحداث تهب على مدينة منبج في تلك الفترة، وبالرغم من ذلك حافظ أهل المدينة على استمرارية الحياة فيها إلى أن دخلها تنظيم داعش ليزرع الرعب في نفوس سكانها، فارضاً عليهم أحكامه المتشددة مما أدى إلى حركة نزوح كبيرة من الأهالي بشكل صعب للغاية إلى مناطق أكثر أمناً، ومنهم أهل جاد الذين انتقلوا إلى حلب للعيش في شقتهم الصغيرة الكائنة في حي المحافظة بعدما هجروا كل ما يملكون من أراضي وعقارات في مدينتهم ريثما يعود الأمن كما كان.. فيعودون إليها، مع أن الوضع في حلب ليس بجيد لكّنه يبقى أكثر رحمة منها هناك.

وأبو عبد الله قرر الإقامة في مدينة طرطوس الساحلية على الشاطئ السوري، بعدما دعاه صديقه العلوي للانتقال إلى هناك والعمل معه في تجارة الأقمشة، ومساعدته في إدارة مشغل حياكة الملابس، وليكونوا بجانب سيلين التي تدرس في جامعة طرطوس، ومن بعدها يخلق الله ما يشاء...

فمن بعد دراسة الوضع في مدينة حلب أتت النتيجة على أنه لا يمكن العيش فيها إن لم يكن هناك وارد مادي كبير أو مخزون من العملة الصعبة، ذلك لغلاء الأسعار الذي استفحل على جميع الأصعدة من مواد غذائية إلى قيمة آجار البيوت.

أما آيات فقد بقيت في حلب مع زوجها الطبيب الذي وقف بجانبها قولاً وقالباً ماكثين في شقة والدته.

بينما جاد انحاز عن اتجاه الطريق الذي قرر أن يسلكه بعدما سمع من والدته نبأ زواج آيات المفاجئ، فأراد الابتعاد عنها وعن احتمال لقائها صدفةً في شوارع المدينة ملتحقاً بمجموعة من الشباب ليهاجر معهم إلى أوروبا ويحاول أن يبدأ حياةً جديدة كما خطط أخاه قديماً، مقرراً إلغاء قضية إثبات نفسه في ظل تلك الفوضى التي عمّت البلد، فلمَ التعب في إيقاظ آلام نامت على فقدان أحدهما، إن كان جاد أم جواد لا أحد مهتم، ولن يغير شيئاً فهناك أمور أهم من ذلك بكثير.

هناك أرض تُنازع سكرات الموت...

هناك شعب تبدلت ملامحه ليصبح الجميع متشابهين

بعدما خطّ الحزن والألم خرائط على وجوههم

جرّاء ما لاقوه من دمار لآمال وأحلام بنوها على وطنهم...

فمعظم الناس تغيرت حياتهم

بعضهم ضاع في طرقات الجهاد المستتر وراء ستار الدين

والبعض منهم غاص في الوحل بالأعمال المبهمة

منتهزاً أبشع الظروف الإنسانية ليكون من أثرياء الحرب

أما الكثير منهم ترك كل شيء ورحل إلى المجهول...

ووفقاً لما حصل فإنه لن يحدث فرقاً إن عاد جاد ومات جواد أو بقي الأمر على حاله.

عِنْدمَا تَلُوح الشَّمْس مِن وَرَاء اَلأُفق

تَكشِف مَعهَا زَيْف الضِّيَاء الكاذب

فَيُشف جِدَار النَّفْس

لِيصير النَّظر فِي المرْآة بَلاهَة

وتنتهي اللعبة...!

(5)

تتغير الآراء كتبدل الفصول

لكن المبادئ تبقى ثابتة كالشمس

حين يكون الكلام مُقيداً بأغلال الصمت

يصبح مارد المواجهة ضعيفاً

فَيتحول الواقع إلى زنزانةٍ مظلمة

تاركاً الأيام وحدها في ساحة البوح

تصارع عقارب الساعة للاعتراف بالحقيقة

إلى أن تستسلم منهكة

لا شيء في جعبتها سوى الندم

على ما فات من فرص تُثبت فيها

أن الصدق شعلة السعادة.

وقفت ساكناً أتساءل مع نفسي:

من أين لراية أن تعرف آيات؟ كيف تَقابلتا؟ ومتى كان ذلك! تسجيل اسم تاليا على رقم آيات تمويه للحقيقة وطمس لها، وهذا يعني أن هناك شيئاً

تخفيه راية عني.... عيناي تدوران في كافة الاتجاهات كقرنيّ استشعار علّني ألتقط إشارة أبدأ منها البحث عن تفسير لما يجري حولي! لم ألقَ سوى سذاجتي في كل ما مررت به...!

من قواعد نجاح العلاقة الزوجية المصارحة بين الطرفين

فَخاصية الإخفاء لا تُجدي نفعاً هنا

والتفاهم على كل الأمور التي تَخصهما

بمثابة المنصة التي تحمي العلاقة من حبل المشنقة.

استيقظت حياة من نومها جائعة تطلب رضعة من الحليب، فقامت راية لتعدّها لها، وصوت مؤذن جامع الرضوان ينادي لصلاة الفجر معلناً عن بداية يوم جديد لا نعرف ما يخبئه لنا...

تلاقت نظراتنا في الردهة لحظة ذهابها إلى المطبخ، بينما كنت متجهاً إلى غرفة الطفلة لأهدهد لها ريثما يجهز شرابها.

لن أنطق بحرف ما لم تبدأ راية بالكلام، سأترك لها الهجوم وأكتفي بالدفاع، فأنا الذي أخطأ أولاً، وأنا الذي أدخل نفسه، وجميع مَن حوله في نفقٍ مظلم بارد بينما كانت الشمس ساطعة توقد الدفء.

لكن ما لبثت إن عادت وبيدها زجاجة الحليب، حتى تحررت الأسئلة من رأسي إلى فوهة فمي راميًا إياها دِراكاً وبكل هدوء، قائلًا لها:

منذ متى تعرفين آيات؟

أجابتني:

من لحظة قدومها مع أهلها إلى حلب.

وقفت لحظات أبلع الصدمة، ثم سألتها:

كيف حصل ذلك...؟

ردت عليّ قائلة:

إنها الصدفة التي دعتني لمعرفتها، فقد كان لدي اجتماع للعضوات في دار الفتاة اليتيمة في شارع النيل لمناقشة وضع الدار، وما آلت عليه من مستجدات بعد الحرب... وقبل دخولي المبنى لمحت سيارتك تمر في الشارع، وبرفقتك رجل يجلس في الأمام وأربعة سيدات تتصدرنّ المقعد الخلفي...

حاولت مناداتك عدّة مرّات لكنك لم تنتبه لندائي، ثمّ قمت بمخابرتك على الجوّال فأجابني المجيب الآلي بأن الرقم غير متاح حالياً...

رجعتُ إلى الخلف لأعود إلى الدار، وإذ ألمحك تتوقف بعد عشرين متراً أمام المبنى الذي تمتلك فيه والدتك منزلاً للآجار، من ثمّ دخلتم إليه جميعًا، فراودني الشك آنذاك بأنها عائلة نازحة من منطقة منكوبة، وسوف تقوم في إيوائهم في المنزل، فقررت التأكد فيما بعد من ذاك الظن، وعدت أدراجي إلى دار الفتاة لأنهي الاجتماع.....

وفي المساء انتظرتك كي تخبرني عمّا جرى معك في ذلك اليوم، حتى أني سألتك يومها هل هناك شيئاً حصل معك...؟

أجبتني بالنفي! وأن كل شيء سار كالمعتاد، وبدوري لم أخبرك أني رأيتك ظهراً في تلك المنطقة....

لقد توغل الشك في صدري وبدأ يلعب فيه بلا شروط، وقلت في نفسي مادام الأمر طي الكتمان فالموضوع فيه إنّ.

كي أخفف حدة الموقف سألت راية بصيغة فكاهية:

وما قصة إنّ تلك؟ كثيرًا ما نقول الموضوع فيه إنّ -القصة فيها إنّ- الحكاية فيها إنّ! هل تعرفين أصل هذه العبارة؟ ومن أين جاءت؟

سأرويها لك على الفور...

قيل أن أصل العبارة يرجع إلى رواية مصدرها هنا مدينة حلب، فقد هرب رجل اسمه علي من المدينة خشية أن يبطش به حاكمها لخلاف جرى بينهما، فأوعز الحاكم إلى كاتبه أن يكتب إلى علي رسالة يطمئنه فيها ويستدعيه للرجوع إلى حلب، ولكن الكاتب شعر بأن حاكم حلب ينوي الشر بعلي، فكتب له رسالة عادية جداً أورد في نهايتها "إنَّ شاء الله تعالى" بتشديد النون، فأدرك الرجل أن الكاتب يحذره حينما شدد حرف النون، ويذكره بقول الله تعالى: "إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ" فرد على رسالة الحاكم برسالة عادية يشكره أفضاله، ويطمئنه على ثقته الشديدة

به وختمها بعبارة: "إنّا الخادم المقر بالأنعام" ففطن الكاتب إلى أن علي يطلب منه التنبه إلى قوله تعالى: "إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا"* وعلم أن الرجل لن يعود إلى حلب في ظل وجود حاكمها، ومن هنا صار استعمال (إنَّ) دلالة على الشك وسوء النية.

ثمّ تابعت سائلًا:

وبماذا خرجتِ أنتِ يا عزيزتي؟

أجابتني:

خرجت بأني كنت محقة، والموضوع كان فيه إنّ وأخواتها أيضاً.

علقت على كلامها قائلًا:

كم أحب ثقة المرأة بنفسها، وأنت يا راية اسمٌ على مسمى رمز الثقة والعنفوان اللتان تُرفرفان عالياً، لكن...

حذار يا عزيزتي من فرط نفخ الثقة، فقد تتفجر غروراً.

اقتربت راية مني وأخذت حياة من بين ذراعيّ ثمّ ضمتها إلى صدرها وهي تدندن لها بصوت خافت لتسقيها ما في الزجاجة من حليب، وراحت تكمل ما قامت في سرده سابقاً:

ذهبت في اليوم التالي إلى منزل شارع النيل وطرقت الباب، أردت أن أعرف مَن تلك العائلة التي كتمت عني قصتها، ولم تخبرني عنها حين

سألتك مساءً هل من جديد؟ فأطلت علّي امرأة أربعينية جميلة وفي عينيها إشارات استفهام....

عرّفت عن نفسي على الفور فقلت لهم إني زوجة الطبيب، وقد سمعت بقدومهم، فأردت أن أقوم بواجب الضيافة... كنت قد ابتعت حينها بعض المواد الغذائية المتنوعة من معلبات وفواكه وخبز وحلويات وبقوليات وزيت....

رحبت بي السيدة بحفاوة وأصرت بالدخول، ثمّ جرّنا الحديث إلى كيفية نزوحهم إلى هنا، وعن معاناتهم في العيش عندما كانوا في مدينتهم فلولا الظروف القاهرة لما تحركوا شبراً من أرضهم.

قاطعت راية بلهجة استغراب قائلًا:

غريب.!! لماذا لم يخبروني بقدومك؟ وَمعرفتك بهم.

فكان ردها قائلة:

لا تلمهم فأنا من طلب ذلك؟

عدت وسألتها:

لكن لماذا يوافقون على رغبتك؟

وما الجدوى من طلبك!

ردت عليّ قائلة:

لا أدري حينها ما كنت أفكر به، فقد اختلطت في داخلي عدة مشاعر في وقت واحد من شدة الحذر فلم أصبو إلى الصحيح منها... وقد كانت آيات في حالة سيئة جداً مما جعل أهلها يرضخون للأمر الواقع حتى ينقذوا ابنتهم من براثن الاكتئاب وسطوة اليأس عليها.

سألتها:

لمَ لن تخبريني أنك على علم بها؟

أجابتني بدهشة قائلة:

ومن عليه أن يخبر الآخر أولاً يا عزيزي! أتذكر أني عرضت عليك في العام الماضي الزواج من امرأة ثانية؟ كانت هي التي اخترتها لك... فبعد زيارتي لهم والحديث مع آيات عرفت كم عانت من آلام لتواصل المسير في طريق شائك مليئة بالأحزان...

وفي خلال أسبوع كنت صديقتها لدرجة أني أقنعتها أن تقبل الزواج بك إن أنت عرضت عليها ذلك، وسوف نظل أصدقاء مدى العمر، ولن أسبب لها أية مشاكل مقابل ألا يتم إعلامك بالأمر حالياً....

أردت أن أعرف مدى ثقة راية في طريقة تفكيرها، فسألتها:

ما الذي أكد لك أني سأعرض عليها الزواج وليست واحدة غيرها؟

ردت عليّ بكل ثقة كعادتها:

لمحت عينيك تبرق بوميض الإعجاب أو ربما الحب عندما حدثتني عنها أيام خطبتنا، فأدركت أنها أنثى لها بصمة في حياتك، ولهفة والدتك لقدوم حفيد تفرح به جعلني أفكر بها بشكل جدّي لتكون آيات ضرّةٌ لي... فقد تملكني الخوف من أن تفاجئني والدتك بزوجة لك تكون من طرفها فأخسر كل شيء.

قلت لها:

ما هذا الهراء الذي تقولينه!

لطالما أخبرتك أنك استثناء.

فَرجحة الميزان نبضي وقد اختارك أنتِ...

إنه لخطأٌ فادح أن أخيب ظنك بي وخطأ واحد ربما يدمر كل شيء.

قاطعتني قائلة:

لا داعي للقلق عَزيزي فخطأ واحد لا يمكنه أن يفعل شيئاً، كنقطة قمت بسكبها في كأس فارغ... لكن تدفق الأخطاء فيها يملأه للحافّة، بحيث لا يمكن أن يستوعب المزيد منها، فيأتي الخطأ الأخير ليفيض ما فيها من تراكم للأخطاء...

لكن عليك أن تقدّم لي تبريراً مُقنعاً عن سبب جعلك تفتح صنبوراً لتملأ كشتبان الخياطة.

وقفت مع نفسي أفكر بهدوء، فبعضهن يمتلكن عيوناً تتكلم ببراعة

فتطلق سهاماً تُصيب الهدف بكل سهولة دون عناء النطق بأي كلمة.
وراية واحدة منهنّ عندما توجه نظراتها نحوي فتجعلني في حالة تأهب تام للهروب منها مُتحاشي تلك النظرات التي تعرِّيني من كل المحاولات التي خططت لها، والاحتمالات لا تنتهي ما دمنا على قيد الحياة.
صوت طرق الباب أنقذني من هجومٍ أوشك أن يقضي عليّ في الجولة الحاسمة، إنها أمي أتت لتخبرني بأن جيران منزلها في شارع النيل اتصلوا بها مساءً لينقلوا لها خبر تهدم المنزل خاصتها جراء القذائف التي هطلت على المنطقة، وان الشابة التي كانت تقطن في المنزل توفيت للأسف، بينما طفلتها نجت بأعجوبة.
ثمّ وقفت مدهوشة تسأل:
لكن ماذا يحصل عندكم أيها الأعزاء؟ هناك حركة غير طبيعية لديكم! وأصوات وصلت مسامعي لم أعتد عليها من قبل... ومَن تلك الصغيرة؟
سؤال أمي كان كفيلاً في بعثرة حروف الإجابة، لكنّي تمالكت رباطة حزني فجمعتها لأنشرها في لحظة الحقيقة قائلًا لها:
أمي عليّ أن أخبرك شيئاً، هذه ابنتي حياة وقد توفيت والدتها بالأمس فقط من جراء تلك الحادثة.
أرادت أمي تفسيرًا أوضح فسألتني:
أَهي زوجتك التي ماتت؟! ومنذ متى! تابعت قائلة:

ها تذكرت، لقد أخبرني السمسار من سنة مضت بأن المنزل قطن فيه عروسان، وقد تم تحويل قيمة الآجار إلى حسابي في المصرف مقدماً لفترة عام....

أجبتها: نعم، هؤلاء نحن وكنت سأخبرك عنها قريباً لكن الموت سبقني إليها أخذها معه ورحل.

كانت نظرة راية نحوي تحمل كل معاني الرجاء بأن لا أخبر والدتي بأنها على علم بزواجي بآيات، وهي مَن خطط له كي لا تزج بنفسها في نوبة الغضب التي قد تجتاح أمي فجأة بعد سماعها النبأ...

لكن الغريب أن والدتي بدت أليفة لما وقع لنا من خبرٍ أليم! أما أنه اعتدنا الموت وأخباره لا أدري!

لم يبدر منها أي ردة فعل سوى انها علقت على الخبر قائلة: إن لله وإن إليه لراجعون، لا تحزن يا ولدي فالموت يملك موعداً مع كل منّا لا يعلم ساعتها إلا الله، والمؤمن مدرك أن الدنيا دار فناء وأن الآخرة دار بقاء، وزوجتك ماتت شهيدة، فطوبى لروحها التي علت السماء قوس قزحاً يشدو أجمل الألحان لابنتها.

الحرب يا بنيّ جعلت من الموت صخرة

ترتطم بها قلوبنا بلا هوادة إلى أن أفقدتها الوعي.

أخذت أمي حياة لتداعبها وكأنها في عالم آخر غير مهتمة بما كُشِفَ من أسرار، كأنها كانت على دراية بما يدور حولها!

حتى إنها لم تسأل السؤال الذي شغل حيزاً في رأسي طيلة الأيام الماضية، ألا وهو (من المرأة التي تزوجتها دون علمي؟)

كاد رأسي ينفجر في أي لحظة ناثراً الأسئلة التي ملأته هباءً...

المواقف تدهشنا دائماً بدهائها بحيث تستطيع السيطرة على استمرار دوران سلسلة الحياة وإن كانت بعض الحلقات مفقودة!

حسبنا الله ونعم الوكيل، ها قد بزغت الشمس، وعليّ أن أقوم بإجراءات الوفاة كي أتمكن اللحاق في تشييع الجثمان إلى مثواه الأخير قبل المغيب، فإكرام الميت دفنه، والأجدر بي أن أبلغ أهل آيات نبأ وفاة ابنتهم حتى يركبوا طريق حلب لوداعها.

أجريت اتصالاً مع العم أبي عبد الله وأخبرته الفاجعة التي حلّت علينا يوم أمس، أجابني أنه سيأتي على جناح السرعة مع والدتها لنتشارك حدّة الألم والحزن.

بعض المشاعر تصبح أخف وطأة على الروح

إن قمنا بمشاركتها مع الآخرين كَالألم والحزن

وبعضها يتكاثر كالفرح والسرور.

"اللهم إني أعوذ بك من الهم والخزن، والعجز والكسل وأعوذ بك من البخل والجبن، وضلع الدين وغلبة الرجال"..

خرجت من المنزل والصدمة تتخبط في حواسي معلنة ولادة أشياء ما كنت أنتظر قدومها.

لا يكون حصاد الصبر سهلاً حين يتعلق الأمر فيمن نحب.

والأحداث التي مرّت خلال السنوات الراحلة كانت كفيلة بأن أتحوّل إلى فزّاعة مهترئة تقف وسط حقول القضاء تصافح عصافير القدر.

فمنذ سنتين مضت غاب أبي، ولم يصلنا عنه أيَّ خبر بالرغم من البحث المكثف الذي قمنا به بواسطة الجهات المختصة... كأنه فصّ ملح وذاب، حيث إنه لم نترك طرف إلا وتقربنا منه وسألنا عليه، حتى إننا قمنا بالإعلان عن جائزة مادية قيّمة لمن يعطينا خبراً موثوقاً عنه أو يدلنا إلى طرف خيط لنمسك به فنجده.

لكن لا جدوى من ذلك أبداً، وكل العمليات التي قمنا بها بائت بالفشل الذريع إلى أن أتاني رجلٌ منذ نحو سنةٍ فاتت يخبرني أنه التقى بأبي في مدينة الرقة عندما كان محتجزاً رهينة لدى إحدى الفئات الجهادية القادمة من العراق.

سألته كيف وصل أبي إلى هناك؟ وكيف استطاع هو التحرر منهم، وما الذي يمنع والدي من ذلك، كان جوابه صاعقاً حقاً.... ما كنت سَأصدقه لو لم يعطيني إشارات ودلالات أرشدتني إلى صحة أقواله.

روى لي الرجل قائلًا إن هناك شبكة كبيرة متخصصة باختطاف الشخصيات المهمة المعروفة، والفتيات القاصرات والأطفال كي يقوموا على استغلالهم وابتزاز ذويهم، ثم يقومون بعدها بترحيلهم إلى مدينة الرقة مركز داعش الرئيسي حالياً وعاصمتها.

وهناك سوق شبيه بسوق النخاسة يتم فيه بيع المختطفين بمختلف الأسعار أو المقايضة عليهم برهائن محتجزة لديهم تهم الجهة الخاطفة، ليقوموا بدورهم في استردادهم إلى أهاليهم مقابل مبلغ كبير من المال، وهكذا دواليك...

ثمّ تابع قائلًا وأنا أنتظر منه باقي القصة بكل حماس كي أنقذ أبي وأعود به إلى المنزل، لكن حين بدأ الرواية أرفق عبارة (التقيت مع والدك رحمه الله) هنا قطعت حديثه قبل أن يبدأ، وسألته قائلًا:

أبي توفي! متى وكيف؟

أخذ يقول بكل أسف وحزن:

حسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله، لقد عانى كثيراً من المرض ولم يكن يتناول العلاج اللازم له.

وقتها أصابني الإعياء وشعرت أن كل شيء من حولي يدور، جلست جانبًا أطلب من الله تعالى الرحمة والمغفرة لروح أبي، وأن يسكنه فسيح جنانه.... ثم عدت لحديث العم كي يروي لي ما حصل مع أبي بالتحديد.

تابع قائلًا:

لقد ازدادت نوبات الصرع على والدك رحمه الله بعد انتهاء العلاج الذي كان بحوزته، كذلك الحالة النفسية التي دخل بها من هلع وخوف على أن يُطالوا بكم زادته سوءًا، لقد أبى والدك أن يرضخ لهم محاولاً حماية عائلته بشتّى الوسائل عندما طلبوا منه أن يقوم بمخابرتك هاتفياً وإعلامك بأن تأتي إليه كي تخلصه منهم، ولكنه فَطنَ إلى ما يخفوه في بواطنهم من خطة أعدّوها للإيقاع بك عندما حاكوا كميناً يلبسوك إياه وأنت راضٍ.

سألته: ما قصدك يا عمّ! أوضح أكثر لو سمحت؟

أجابني:

لقد أرادوا تجنيدك في صفوفهم، وجعلك الطبيب الميداني لديهم نكاية بالجهة التي تنتمون إليها.

سألته حينها باستغراب شديد:

عن أية جهة تتحدث؟

يذوب طعم الانتماء من مرارة الحرب

فتبدو في زحمة الموت لقيطاً كَالمقطوع من شجرة.

تابع الرجل قوله:

هم لا يفهمون ذلك، دماغهم مغسولة ثم محشوة بأفكار الأشخاص الذين قاموا بغسلها لينفذوا الأوامر دون اعتراض مسبقٍ أو ملحق.

عدت وطلبت منه أن يخبرني أولاً عن والدي، فتابع حديثه قائلًا:

لقد التقيت مع والدك في مدينة الرقة عندما كنت رهينة أنتظر مستجدات تؤول إلى فك أسري، والاتفاق بينهم وبين أفراد أسرتي على دفع الفدية ومكان تسليمها...

كان في حالة رثّة، ألقوه مغطى الرأس ومكبل اليدين في مستودع الاحتجاز، ثمّ رحلوا بعد أن أوصدوا الباب... اقتربت منه ونزعت عنه القيد والعُصابة ثمّ عرفته عن نفسي لنصبح بعدها أصدقاء في الأَسر....

كانوا يجرّونه ـ رحمة الله عليه ـ كل ثلاثة أيام مرة تقريباً للمثول أمام الأمير، والتفاوض معه، وكان في كل كرّة يرجع فيها إلى الحجز أسوأ مما ذهب، فقد كانوا يعتمدون تعذيبه جسدياً، وإهانته نفسياً، ويهددونه بخطف إحدى بناته بواسطة عصابة نسائية تصول وتجول في المدينة إن لم يخضع لإرادتهم.

كانت لحظات مؤلمة حين سمعت أخبار سيئة عن والدي، لقد تعذب كثيرًا قبل وفاته، أردت معرفة من أين تم خطفه فسألت الرجل إن كان

يعرف بذلك، فأجابني قائلًا بأن أبي أخبره قصة خطفه من منطقة تدعى الشيخ نجار، فقد كان ذاهباً إلى معمل الخيط هناك ليحصي ما بقي منه بعد الدمار، قال له أنه سمع برحيل العصابات المسلحة عنه، ولكن ما لبث أن اتضح أنها إشاعة انتشرت لجرّ أصحاب المعامل إلى تلك المنطقة والنيل منهم.

فهم لا يستطيعون التجوال في شوارع حلب على راحتهم للقيام بما أتوا إليه من تنفيذ المهمات التي أُوكلت لهم، لذلك اعتمدوا تلك الخطة ليقوموا بجذب أكبر عدد ممكن من أصحاب المعامل وخطفهم.

نعم لقد حصل ذلك بالفعل، لقد نالت تلك الحادثة من معظم عوائل حلب المعروفة، حيث انتشرت أخبار متفرقة عن اختفاء ذويهم المفاجئ، وقد قمنا باجتماع طارئ آنذاك مرجحين أن الخطف كان من تلك المنطقة، لكن ما باليد حيلة فالوضع مزري، وما من جهات مسؤولة يُعتمد عليها، وعليك تخليص شوكك بيدك كما يقول المثل... ثمّ بتنا ننتظر مكالمة هاتفية من الجهة الخاطفة لتعلمنا عن مطلبهم برقم الفدية التي يحددونها مقابل الإفراج عن أبي.

تابع الرجل حديثه قائلًا:

لقد كانوا واضحين من البداية مع والدك، غايتهم منه الحصول عليك بشتى الوسائل والاستفادة من خبرتك الطبية، فهم ليسوا بحاجة للمال...

فالمال يصلهم على بارد الماء من سلطات خارجية عليا تطبخ الإرهاب على نار هادئة ليأكل منه بلاد الشرق الأوسط.

رحمك الله يا أبي، مؤكد أنه عانى كثيراً قبل موته، فبعد انتهاء الدواء الذي كان بحوزته أصبحت نوبات المرض تشتد عليه، وكانت حالته الصحية تسوء بعد كل حادثة اختلاج تليها إغماء طويلة، ولاسيما أن الطعام الذي كان يُقدم له كان من قائمة الأطعمة الممنوع تناولها لأن هناك أنواع من المأكولات تسبب زيادة حدة النوبة لديه، ولقد أخبرني الرجل عن نوعية الطعام الذي كانوا يلقونه لهم.

فقلت له حينها:

أجل يا عم، هناك أطعمة لا يجب أكلها إن كان الشخص مصاباً بذاك المرض، وخصوصاً في ظلّ الحالة النفسية السيئة وعدم تناول العلاج اللازم.

ثم أخبرني الرجل حادثة تألمت جدًا على إثرها، فقد قال لي:

ومما زاد حالة والدك سوءاً أنه وقع ذات مرّة أمامهم على الأرض بعد أن أصابه اختلاج شديد مُرافقاً صوت خرخرة عميقة، ظنوا أنه أُصيب بمس شيطاني طرحه أرضًا وبات متلبساً به ومسيطراً عليه، أصابهم الموقف بالخوف كثيراً فراحوا منهالين عليه ضرباً بالهراوات على رأسه وأنحاء جسده... ثم قرروا حبسه بغرفة انفرادية مظلمة، ومنع شتى أنواع

الطعام عنه حتى هزل جسده، وضعفت المناعة عنده مما أوقعه طريح فراش الموت من أول نزلة برد داهمت المدينة حينها.

عندما تنجرح الروح يئن الجسد

وحين تشتعل يحترق فكلاهما في صفٍ واحد.

طلبت من الرجل التوقف عن الحديث، فلم أعد أحتمل المزيد من الحسرة والألم على ما عاناه والدي آنذاك... حسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله... لك الحمد ولك الشكر يا رب على ما أعطيت وما أخذت.... رحمك الله يا أبي رحمة الأبرار وأسكنك فسيح الجنات.

للأسف ما زال بعض الأشخاص يربطون مرض الصرع بالجنون أو التخلف العقلي، بينما هو ليس إلا اختلال عصبي داخلي، ينتج عن اضطراب الإشارات الكهربائية في خلايا المخ مسبباً خللاً قائماً في الشحنات الكهربائية الدماغيّة، ينتج عنه في لحظة معيّنة تفريغ كهربائي لتلك الشحنات عن طريق نوبة من الحركات لا إرادية عنيفة أو انقباضات عضليّة.

نحن في القرن الواحد والعشرين، ونتفاجأ أحياناً بأنه يتم التعامل مع هذا المرض على أنه شكل من أشكال السحر المربوط، ويُعالج بطرق غير مقبولة في عصرنا الحالي حيث يعتمدون على وسائل الشعوذة لطرد الأرواح الشريرة والشياطين من جسم الشخص المصاب كما يعتقدون، فتضيع حياة المريض في ترهات الدجالين.

معرفة وتشخيص المرض بشكل صحيح يعتبر نصف العلاج، ولذلك التشخيص الخاطئ يقود للعلاج الخاطئ دائماً... وبالنسبة لكل من يعتقد أنه مسحور أو ممسوس أو أن أحداً عمل له عملاً ما كي يؤذيه أو أن جنياً يطارده أو أن أحداً قادراً على أن يمنعه من الزواج أو الرزق أو إنجاب الأولاد... كل ذلك هو اعتقاد خاطئ لأن كل شيء بيد الله تعالى عز وجل.

كما قال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في حديثه الشريف: "قل لو اجتمعت الإنس والجن على أن ينفعوك بِشيء ما نفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا عَلَى أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه اللَّه عليك"

لقد كشف علماء النفس الكثير من الأمراض والاضطرابات النفسية التي يتعرض لها الإنسان بسبب الظروف الصعبة التي يعيشها، أو بسبب ضغوط لا يتحملها، أو بسبب ضعف الإيمان وعدم الرضا بقضاء الله تعالى...

وهذه الأمراض كثيرة مثل الاكتئاب والقلق وانفصام الشخصية، وتلك الأمراض يعاني منها كثير من الناس.. وأسهل شيء على الناس البسطاء هو أن يعتقدوا بتلبس الجن.

أما التفسير العلمي لذلك فلا يعدو أن يكون في هذه الحالات سوى استقبال المريض لبعض المؤثرات الصوتية والضوئية الغير واقعية نتيجة لخلل مرضي أصاب مراكز الجهاز العصبي، وهو ما نطلق عليه في الطب النفسي هلوسات سمعية وبصرية، وهذه من أعراض المرض العقلي، وليست سبباً فيه.

كما أنه لا علاقة بين ذلك وبين مرض الصرع أو الأشباح والأرواح الشريرة والقوى الخفية.

عندما يفشل الأطباء في تحديد نوع المرض ويستعصي عليهم علاجه، يلجأ المريض إلى معالج بالرقية الشرعية وليست المشكلة في الرقية أو الشفاء بالقرآن، بل المشكلة في بعض المعالجين الذين اتخذوا هذه المهنة وسيلة للكسب السريع على جهل منهم فيَضِلوا ويُضِلوا....

إيّاك أن تعتقد بأن الجن يمكن أن يتلبّس بك أو يسكن في داخلك أو يؤثر عليك، لأن الله تعالى قال مُخاطباً إبليس في سورة الحجر: (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ*)، والله عزّ وجلّ أصدق من هؤلاء الذين يخوفونك من الجن...

فالشياطين لا تملك لنا نفعاً ولا ضراً، ولا تستطيع التدخل في شؤون عالمنا إلا أن توسوس لنا...

نصيحة... دع عنك الاستغراق في التفكير في هذه الأمور التي قد تدفعك إلى القلق والاضطراب والخوف، وربما تصبح بعدها من المرضى الذين يحتاجون لعلاج طويل، وكل ما عليك هو أن تتفاءل وتبتسم للحياة مُواظباً على الصلاة وقراءة الأذكار.... وقبل ذلك وبعده أن تتوكل على الله في أمرك كله.

لم أشأ أن أخبر عائلتي عن التفاصيل التي أدت إلى وفاة والدي، يكفي أنه كان وقعها عليّ مؤلماً جداً.... فبرحيله انقسم ظهري إلى نصفين يحمل أحدهما الحزن، والنصف الآخر يحمل المسؤولية، بالرغم من اختفائه لمدة طويلة أقنعنا فيها أنفسنا أنه محبوس في عالمٍ آخر أو ذهب إلى دنيا أخرى، لم يستطع فيها أن يخبرنا عن مكانه لأنّ والدي كان من نوع الأشخاص المتمسكين برباط العائلة المقدّس.

هذا أبي... أشعر أني ألتقيه كل ليلة وأصغي إليه بكل حواسي، أشعر أني آخذ مشورته في كل خطواتي كما عهدنا، رحماك يا ربي فقلبي انفطر على فراقه... لقد غرس فينا ما غرس من أخلاق حميدة وحب ولا يزال غرسه قائم ومشعله لا ينطفئ، رحل عنّا وكأنه لم يرحل... فعمله في كل مكان يُضيء عتمة فراقه بالدعاء الصالح، مستنداً على أن الركيزة القوية في تربية الأولاد تكمن في العمل قبل الإرشاد من خلال عبارته...

"كونوا لأولادكم قدوة قبل أن تقولوا حكمة. "

أبي... سوف تبقى ترفرف في سماء أفقي في كل حين، ولن يغيب شخصك الكريم، ولن تغيب روحك عن كياني للحظة.

بعد انتهاء طقوس العزاء الذي أقمناه في دارنا لمدة ثلاثة أيام جلست أخاطب نفسي عن وصية أبي التي حمّلها للرجل، طلب فيها والدي -رحمة الله عليه- أن أتزوج من امرأة ثانية كي أواصل حمل اسمه في العائلة، ولا ضير من زواجي طالما هناك سبباً لذلك...

كنت حينها أتأرجح بين حبي لراية، والحفاظ على رقة مشاعرها من شرخ قد يسبب لها كسراً مدى الحياة، فيستعصي عليّ تجبيره، وبين تنفيذ وصية أبي في برّه، ودخول فرحة قدوم المولود إلى قلب أمي.

ثمّ أتت آيات لتقف أمامي، فهي الأخرى كانت تمر بظروفٍ وعرة، وحاجتها المّاسة إلى من يمسك يدها ليساعدها على تخطي الأزمة بسلام وحمايتها من السقوط، جعلني أُقدم على تنفيذ وصية أبي دون تردد لأطلب يدها من العم أبي عبد الله ضارباً وعداً له في أن أحفظ ابنته من كل مكروه، وأكون لها الأب والأخ والزوج والحبيب والصديق.

لكني أخطأت حقاً عندما أخفيت عن راية ما أوصاني به والدي حفاظاً على بقائها معي، بينما هي قامت بعرض الزواج الثاني لتحافظ عليّ، نحن الاثنين كانت غايتنا واحدة، وهدفنا واحد لكن بوسيلة مختلفة، أما

والدتي فكان سبب إخفائي عنها هو تشددها حيال فروق الطبقات الاجتماعية، وما تؤول لها من تمييز قد يزحزح القيم الإنسانية من موضعها دون الاكتراث للندبة التي سيقوم بسببها ذلك الجرح.

لذلك كنت قد قررت تأجيل إعلان الزواج إلى حين أتمكن من جمع الزوايا كافتها في قبضة يد واحدة، حتى لا يفلت مني زمام الأمر، لتأتي الصدفة وتسبقني لكشف ما خططت له من أول خطوة حين رأتني راية مع عائلة عمي أبي عبد الله أقوم في توصيلهم إلى منزل أمي الكائن في شارع النيل.

وكما قال المتنبي:

مَا كلُّ ما يَتَمَنّى المَرْءُ يُدْرِكُهُ، تجرِي الرّياحُ بمَا لا تَشتَهي السّفُنُ.

وصل أهل آيات إلى مشارف مدينة حلب بعد انسحاب النور من كبد السماء وحلول الظلام معلناً عن نهاية يوم آخر من أجندة يومياتنا...

كان الطريق بين طرطوس وحلب يستغرق أربع ساعات على الأكثر قبل الحرب، أما حاليًا فلا حساب للساعات هنا، فالطريق تفرعت إلى طرق ترابية وحواجز أمنية تتخلل كل مسافةٍ منها لدواعي الأمن، مما اضطرني أن أبقي جثمان المرحومة في برّاد المشفى إلى اليوم التالي لنقوم بمراسم الدفن بحضور والديها.

بالطبع لم أكن لأصدق لو أحد أخبرني أن بعد سنة فقط من زواجي بآيات ستغيب الشمس بيننا إلى الأبد تاركةً على كف يدي شعاعاً صغيراً ينبض للحياة ألا وهو ابنتي، وفي حوزة اليد الأخرى ورقة شهادة وفاة أمها، لكن... هكذا هو القدر أصدق من أي خبر.

الحياة أطول مسرحية نعيشها

تبدأ لحظة الولادة وتنتهي عند إسدال الستارة

لنعانق خلفها سُكرة الموت

وما بينهما ليس سوى حلم.

توالت الأيام ثم السنون، وانتهت الحرب باتحاد دول الوطن العربي في محاربة الإرهاب والقضاء عليه، بعد أن استشعروا بقدوم الخطر عليهم، وبذلك عادت سورية دولة قوية كما قبل، وعاد معها الأمان والسلام اللذّان غابا طويلاً عنها.

بعد مرور ثلاثين عاماً على بداية رحلتي مع راية.... مرميٌّ على مقعد بجانب النافذة لأرتاح من عناء عملية جراحية في مشفاي الخاص للأطفال في منطقة حلب الجديدة لأُجهز نفسي بعدها للخروج إلى إلقاء محاضرة في جامعة حلب.

أراقب السماء وما يسير فيها من أشكال متنوعة بغيومها البيضاء، كأنها في مهرجانٍ للقطن الأبيض الناعم الذي اشتهرت بإقامته المدينة في كل

فصل خريف من السنة... حيث تجوب العربات المزينة بالقطن شوارع حلب بأشكالها المتعددة مروراً بساحة سعد الله الجابري متجهةً إلى القلعة وسكان المدينة يقفون على النواصي يصفقون لجهد الفلاحين ويشاركون فرحتهم بنهاية موسم الحصاد فيما جنوا من رزقٍ وخيرٍ لهم وللبلد.

وأنا أيضاً في منتهى السعادة فيما استطعت إنجازه في الأعوام السابقة ومتفائلٌ بما رست عليه سفني بعد رحلات اكتشفت فيها مختلف المشاعر جرّاء المواقف والظروف التي مررنا بها، بالإضافة إلى الرضى عن كل الأقدار التي عشتها وما أزال أعيشها حامداً شاكراً من صميم قلبي على نعمة السلام الداخلي التي تنير الروح خيراً وسرور.

هذا العام يُصادف عام النجاح والتألق على الجميع، فَحفلات التخرج فيه نجوماً تتلألأ تِباعاً في سماء العائلة، أولها ابنتي البكر حياة التي أنهت دراستها في كلية الطب البشري، بناءً على رغبتها وليس محاباة للمهنة كما تظنون.

ففي عالمنا اليوم أصبح الأبناء أكثر وعياً وفهماً نتيجة ظهور التكنولوجيا، واليوم الشاب قادر على اختيار مستقبله العلمي أو المهني كذلك بالنسبة للفتاة أيضاً، مع الأخذ بعين الاعتبار توجيه الأهل وإرشادهم لأبنائهم في حسن الاختيار الذي سوف يتحمل نتيجته

مستقبلاً، فتوجيه الأهل مهم جداً لكن لابد أن يكون من خلال النقاش لا فرض الرأي، فإن تدخل الآباء في اختيارات أبنائهم وإجبارهم على الدراسة التي يريدها الأهل يؤدي إلى حدوث اضطراب وشرخ في شخصية أبنائهم نتيجة التدخل في اختيار مصيرهم، مما يترتب على ذلك ممارسته لعمل لا يحبه، وقد يؤدي إلى إخفاقه في دراسته الجامعية أو الفشل في حياته المهنية وعدم إكمالها.

أما الحفلة الثانية فهي لابنتي حنان التي أنهت دراسة الصيدلة، وهي تصغر شقيقتها الكبرى بعشرة شهور فقط لِتبدوا كالتوأم في تقاربهما في كل شيء، فقد شُفيت راية تماماً فور انضمام حياة إلينا... وأكرمنا الله تعالى الذرية الصالحة بعد الصبر والمعاناة من الحرمان، اللهّم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد.

ثمّ تليهما حفلة تخرج ابني الوحيد يزن الذي اختار أن يكون رجل قانون، وسيقوم بالتدريب بعدها عند محامٍ مشهور جداً، كان قد عاد إلى حضن الوطن بعد انتهاء الحرب... له في ساحة القضاء بصمته المميزة، بالإضافة إلى أنه مستشاراً قانونياً لدى المحكمة الجنائية... اسمه نارٌ على علم، يكفي أن تلفظه لتدرك أن القضية رابحة لا مجال للشك فيها... بدأ مزاولة عمله بقضية كبيرة تخصه شخصياً، وقد كنت طرف الخصم فيها... إلا أننا أصبحنا أصدقاء فور انتهائها... أذكر بالماضي عندما

ربح تلك القضية، حدثت ضجة كبيرة في كافة مواقع التواصل الاجتماعي عبر هاشتاغ #عَاد_جاد مما جعلها قضية رأي عام آنذاك...

قال لي وقتها بكل ثقة على ما عاشه من ضياع:

إذا أردت أن تكون ساطعاً في حياتك

عليك أن تختار المسار الصحيح لأنّ النور دليل النجاح

أما الظلمة فَتقبع دائماً في المنحنيات...

ولا تنس أن النزيف الذي يسيل من وخز الأشواك

مَنبعه الورود.

وأيضاً نحن نترقب سطوع نجم ابنتي إيمان فور انتهائها من المرحلة الثانوية وما سَتصبو إليه من دراسة جامعية، مقعدها محجوز في جامعة حلب كوني دكتور مُحاضرٌ فيها يتم فرز مكانٍ مسبق لكل ولد من أولادي في أي كلية يختارونها وفق مفاضلة للعلامات خاصة بهم.

أما آخر العنقود توبة فسوف تنهي المرحلة الإعدادية، ومُلحّة بأن تخوض العمل التجاري في الموسم الصيفي القادم ريثما تبدأ المرحلة القادمة من دراسة الثانوية عند بدء العام الدراسي، فقد قررت أن تعمل مع جدتها أمدّها الله بالصحة والعافية بمساعدتها في إدارة معمل الشوكولا الذي نال سمعةً ممتازة على مرّ العقود في جودة الإنتاج، واتساع التوزيع إلى أنحاء الوطن العربي، وبعض دول الشرق الأقصى

وأوروبا مما جعل من اسم المنتج ماركة عالمية مُسجلة مشهورة في أقاصي المعمورة... وكذلك تسعى والدتي بتطوير برنامج خط الإنتاج في إدراج أصناف مبتكرة تشارك المواد الأساسية.

الأولاد زينة الحياة الدنيا، وهم البهجة التي نستردها عندما نَشعر بخيبات الأمل التي تتدفق على حياتنا، فلا سبيل للعيش السعيد بدونهم...

الأولاد هم النعمة التي كلفنا الله تعالى بالمحافظة عليها، وهم أمانة وضعها عزّ وجلّ في أحضاننا، وعلينا أن نصون تلك الأمانة بتربيتهم تربية صالحة وتعليمهم ما هو الحلال والحرام قبل العَائبة التي تخرج من العادات والتقاليد المحيطة بمجتمعنا.

وطوبى للذين رُزقوا إناثاً وأحسنوا تربيتهم، فقد بشَّرنا رسولنا الكريم -صلى الله عليه وسلم- أن من رُزق بأنثى فأحسن تربيتها دخل الجنة، والتربية الحسنة هي تربية دينية ودنيوية وأخلاقية.

ولعلّ من أهم أساليب تربية الأبناء هي عدم التفرقة بينهم في المعاملة أو تمييز طفلٍ على طفل آخر بسبب سن أو جنس أو أي شيء، وخاصةً عند وجود ذكر وحيد بين مجموعة إناث، فما ينطبق عليهنّ من توجيه وتربية ينطبق عليه أيضاً، مُضافاً إليه مسؤولية رعايتهنّ بالحسنى إن أصابهنّ مكروهاً لا قدّر الله.

وبذلك ينشأ الأفراد أسوياء يتقبلون بعضهم البعض بكل احترام دون ظهور أي من مشاعر الكراهية أو العدوان بين الأخوة.

وعن زوجتي راية سيتم تكريمها قريباً إن شاء الله بجائزة التميز الدولية من قبل وزارة التربية والتعليم، ووزارة الشباب لمدرستها الخاصة بالإناث في الفنون المختلفة من الأعمال اليدوية والطبخ والعزف على الآلات الموسيقية إلى فن التصميم الداخلي والإتيكيت الاجتماعي بمساعدة خبراء من كافة أنحاء العالم، وبوجود أخصائية نفسية بارعة في حلّ أكبر مشكلة تواجهها الفتاة، وإخصائية تغذية تُراقب صحتها، فالعقل السليم في الجسم السليم كما نعلم.

لقد قامت المدرسة بتخريج دفعات من سيدات صغيرات متحررات من احتلال الأفكار البخسة التي تبثها مواقع الإنترنت السيئة لهنّ، مُلتزمات بتعاليم دينهنّ وَذوات شخصية متميزة... يعرفنّ جيداً ما لهنّ من حقوق وما عليهنّ من واجبات، صنعن جيلاً نافعاً بنّاء فيه كل الإفادة... مما لوحظ مؤخراً التغيير الإيجابي الذي حصل في البنى التحتية للأسرة، فكان حصيلته مجتمعاً نموذجياً يُحتذى به على كافة الأصعدة.

وراء كلّ امرأة ناجحة رجلٌ جيد يدفعها إلى الأمام.

المرأة مرآة المجتمع، فهي التي تَعكس مدى تقدّمه وتَطوّره ورُقيّه... وبقدر مراعاة المُجتمع لحُقوقِها ومُسانَدتها والاهتمام بتعليمها يَكونُ

ارتقاؤه بأجيالِه، لأن حُقوقُ المرأة ليست مُجرّد قضيّةٍ إنسانيّةٍ بل قضيّةٌ وطنيّةٌ ترتَبط في مختلف المجالات الفكريّة... والسياسيّة والاقتصادية.

والمرأة في الإسلام لها من الحقوق ما تتمنَّاه كل نساء العالم في وقتنا الحاضر، لها كرامة وكيان...

المرأة ليست سلعة ولا بضاعة مبتذلة، ليست متاعاً يُباع ويُشترى ولا آلة نبرمجها كما نريد...

ليست مخلوق للمتعة والإنجاب فقط، بل هي إنسان مستقل لها مشاعر وأحاسيس علينا احتواؤها بحب وحنان...

ولا أجدُ قولاً أقوله أفضل من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم (اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْراً)، فلا تظلموهنّ وتحرموهنّ حقوقهن... لأن الظلم ظُلُماتٌ يوم القيامة.

أما اليوم سنحتفل مساءً بذكرى زواجنا في المنزل بصحبة العائلة بأكملها من والدتي إلى شقيقاتي وعوائلهنّ كما ترغب راية والفتيات....

لكن قبل ذهابي إلى الجامعة لإلقاء محاضرتي عليّ أولاً المرور على النحّات، كي أطمئن إلى جاهزية اللوحة الجدارية التي صممتها بنفسي لتلك المناسبة، وهي عبارة عن قطعةٍ خشبية مكتوبٌ عليها كلمة حياة بشكلٍ بارز... متفرعاً عن كل حرف منها أسماء أولادي بالترتيب لتصبح بصورتها النهائية أيقونة الترابط الأخوي.

وبينما كنت خارجاً من المشفى صدمت شاباً يحمل باقة من الورد الجوري الأحمر، اعتذرت منه على ما بدر مني دون قصد ثم راح يسألني قائلًا:

هل حضرتك الطبيب وسام صاحب المشفى؟

أجبته بوجه بشوش: نعم... تفضل.

ردّ عليّ بأدب قائلًا:

بل أنا الذي أعتذر منك على التأخير الطارئ بسبب الزحام، هاك تلك الباقة لحضرتك.

أخذت الورود منه بعد شكره، ثمّ مددت ناظري نحو الباقة لأرى بداخلها بطاقة مكتوبٌ عليها...

لم أكن أدري أن على الأرض حياة

إلى حين أحببتك

كل عام وأنت الحب

حبيبتك راية.

فُرصة شكر

شكراً للوقت الذي قدّم لي بطاقة سفر إلى دلوك الشمس بالرغم من ازدحام الأجندة بالمسؤوليات والأعمال اليومية.

وبالمقابل أيضاً أشكر الفراغ المتمرد لمداعبته الحروف، ودعوتها لدخول عالمي الخاص المبعثر بين السطور.

وكل الشكر للوقت المستقطع الذي أوقف فيه الزمن دون مطالبتي بالدقائق الهاربة ليسمح بالتحليق مع الذكريات، إلى كوكب بعيد لن يصل إليه النسيان.

فقرة الغلاف

تميل الشمس للزوال في أمورٍ نظنُّ فيها أنها قد غابت ورحلت بشكل نهائي، فتبدو لنا الظلال في العتمة أشباحاً ....

لكنّ ما تلبث أن تعود من جديد وتُشرق، كي يسطع اليقين نوراً لتؤكد أن جميع الاحتمالات ليست سوى أوهاماً عشناها في روايةً ضخمة عنوانها الحياة ... نحن بالواقع أبطال القصص فيها والأيام تثبت لنا ذلك، فمَن يختبئ الآن سيظهر غداً من تلقاء مصيره، لأن الاختباء في الحقيقة مهنة لا يمارسها سوى البارعون في الموت أو الذين يملكون طاقية الإخفاء...!

من أجل ذلك لا يمكن الاكتفاء بالعيون التي نرى من خلالها المظاهر، لا بدّ بالاستعانة بعيون القلب وما سنراه في البواطن....

لقد قلتها آلاف المرات: (الإحساس أقوى من النظر).

رواية

دُلـــــوك الـشمس

نور شحط

إصدارات الكاتبة الأدبية

روايات

رواية عاشت حلب نُشرت عام 2017 من إصدار دار الحامد للنشر والتوزيع في الأردن

رواية دلوك الشمس نُشرت عام 2018 من إصدار دار الغَاية للنشر والتوزيع في الأردن

رواية ماريونت نُشرت عام 2019 من إصدار دار حروف منثورة في مصر

خواطر ونصوص نثرية

في عام 2020 تم إصدار كتاب خواطر ونصوص نثرية بعنوان أمواج نبض الياسمين من إصدار دار حروف منثورة في مصر

كتب في تطوير الذات والتنمية البشرية

كتاب بعنوان شهد الوصايا والذي فاز بالمركز الثاني في المسابقة الثقافية الدولية لمؤسسة هبة بنداري للتنمية الثقافية الدورة الثانية لعام 2021 وتم إصداره عن دار واو للنشر والتوزيع في مصر

كتاب بعنوان لمبة واحدة لا تكفي فاز بجائزة التميز في المسابقة الدولية لمؤسسة هبة بنداري للتنمية الثقافية الدورة الثالثة لعام 2022 وتم إصداره عن دار واو للنشر والتوزيع في مصر

كتاب بعنوان حديث الكتابة فاز بجائزة الإبداع في المسابقة الدولية لمؤسسة هبة بندارية للتنمية الثقافية الدورة الرابعة لعام 2023 والذي نُشر عن دار واو للنشر والتوزيع في مصر.

مقالات ومواضيع رأي

لدى الكاتبة عدة مقالات متنوعة في مختلف المجالات (اجتماعية، نفسية، تربوية، فلسفية، أطفال...) جميعها منشورة في موقع الويب الخاص بالمؤلفة.

موقع الويب https://nurshahhet.blogspot.com /

قناة اليوتيوب https://www.youtube.com/@nurshahhet